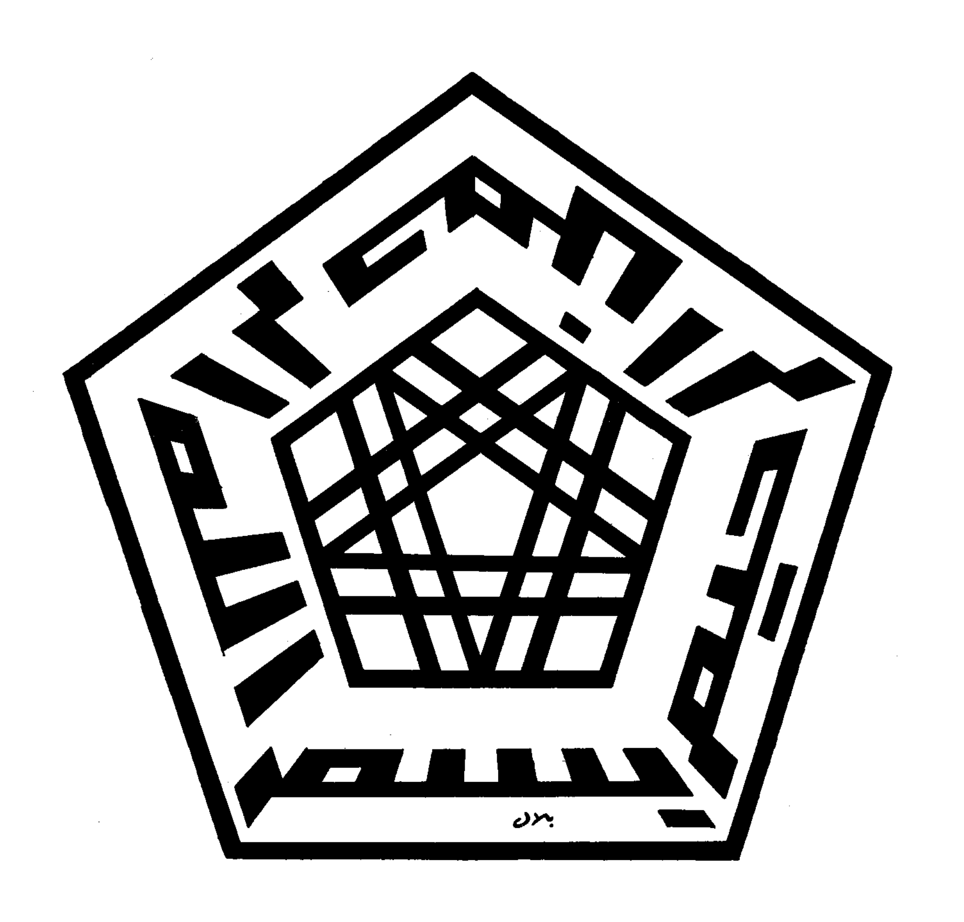
بلال عبد الوهاب الرفاعي








الخط العربي
تاريخه وحاضره

الطبعة الاولى

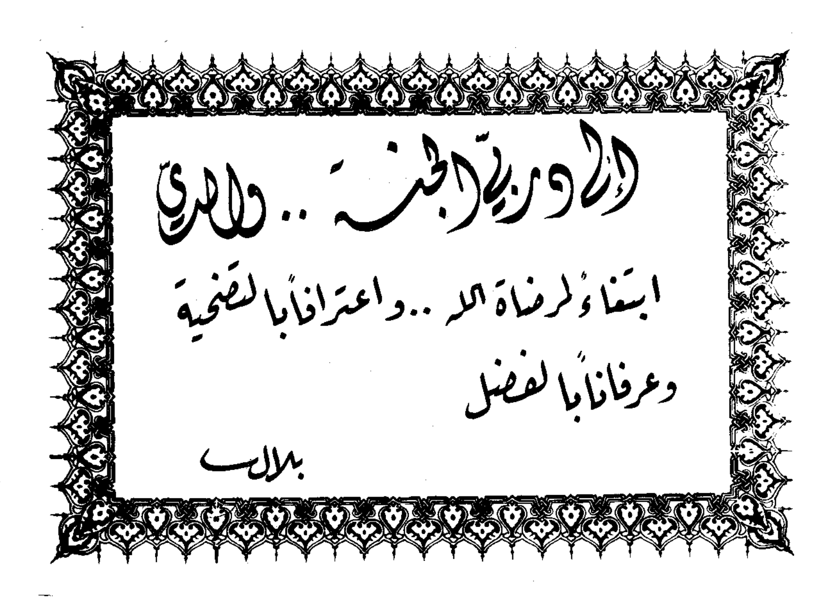
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - شارع مسلم البارودي بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٣١١ - هاتف ٢٢٥٨٧٧

بيروت - ص.ب ٦٣١٨/ ١١٣



إلى دربي الجنة .. والدي

ابتغاءً لرضاة الله .. واعترافاً بالتضحية

وعرفاناً بالفضل

بلال


بسم الله الرحمن الرحيم
اقرأ
باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق
اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان
ما لم يعلم
صدق الله العظيم

توطئة

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافىء مزيده ، سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

يعد الخط العربي واحداً من أهم الفنون التي أبدعتها الحضارة العربية الإسلامية ، ودفعتها دفعاً عظيماً لتجعل منه محوراً لفنون أخرى ألحقت به وسايرته كعنصرٍ يضيف إلى الروعة روعة وإلى الجمال جمالاً .

فقد سارت فنون الزخرفة الإسلامية والمنمنمات والتذهيب والتجليد جنباً إلى جنب مع الخط ، لتظهره في أبهى حلة وأجمل هيئة .. **فما هي حكاية هذا الفن العريق ؟**

ورث العرب عن عصر الجاهلية خطاً بدائياً ليس فيه من الجمال والتناسق شيء ، وبنهوض الأمة العربية بالإسلام استيقظت في النفوس المواهب الدفينة والإمكانات المبدعة ، ي أظهرت طاقات خلّاقة بدأت تبحث عن كنوز المعرفة وعن قيم جديدة تتلاءم وأخلاق ومبادىء الدين الجديد .

هذه الطاقات بدأت تشق طرق الفنون والعلوم والفقه و ... ، وإن بدأت تشق طريق الفنون فأنى لها أن تظهر في غير تنميق وكتابة آيات الله وأحاديث المصطفى — عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم — على جدران وبوابات الجوامع والمدارس والقصور ؟ لقد وجدت الخاصة والعامة من الناس في الخط العربي مكمناً مقدساً يصور عقيدتهم السمحاء ويحفظ لهم كتاب الله وأحاديث نبيه ﷺ ، وينقل لهم علوم أمم سبقتهم من عرب وأعاجم ويحفظ لهم أبحاثهم في شتى مجالات الحياة من طب ورياضيات وفلك وصيدلة .

لِذا فقد بدأت كتابي برصد مراحل نشوء الكتابة وتطورها وصولاً لخطوط مواطن انتشار أمتنا العربية في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام ووادي الرافدين ومصر ، والتي

ظهرت فيها الخطوط المسمارية والهيروغليفية وخط المسند والخط النبطي كخطوط رئيسية موثقةٍ معروفة .

قد يكون الخط العربي الذي وصلنا من عصر الجاهلية مزيجاً منها أو أحدها ، لأن تطوره قد باعد بينه وبين أصله ، وهذا ما يتفق عليه كثير من الدارسين لتطور الخط العربي في اعتبار الخط النبطي أصلاً له . تلاه بعد ذلك زمن صدر الإسلام – عهد الرسول الأعظم والخلفاء الراشدين – والذي تم فيه توطيد دعائم هذا الخط ونشره ، وبداية مرحلة القضاء على الأمية ، وانتشار التعليم تبعاً للحاجة الملحة لتعلم القرآن الكريم وحفظه والعمل به في أصقاع شتى من الأرض ، عربية وغير عربية ، ليأتي بعده العصر الأموي الذي يعتبر بداية عصر الزخرف للدولة الإسلامية الفنية ، والذي ظهر فيه الخطاط كشخصية مستقلة مرموقة . وكان للخطاط المجوِّد المبدع السبق في التقرب من الولاة والحكام ، هذا العهد الذي كان أهم ما فيه التنقيط والإعجام وظهور « **قطبة المحرر** » الذي أمكن له أن يخطو الخطوات الأولى في تطوير شكل الحرف العربي ، وأن يبدأ بتنميقه ووضع أشكالٍ عدّةٍ له ، لتظهر أنواع متباينة للخط العربي في الآن عينه الذي كانت فيه الكوفة تزيد من روعة وبهجة الخط الكوفي ليصبح المعتمد في خط القرآن الكريم .

ثم حل العصر العباسي الذي ابتدأت فيه مظاهر الترف بعد أن أمست الدولة الإسلامية إمبراطورية مترامية الأطراف ، وأصبح تمازج الحضارات في البوتقة العربية الإسلامية أمراً لا بد منه ، بحيث نمت معارف هذه الامبراطورية نمواً بديعاً ، ولاحت في سماء معارفها شخصيات عملاقة في كل المجالات ، فظهرت في عالم الخط العربي شخصيات فريدة ثلاث ، أولها **الوزير** « **ابن مقلة** » الذي وضع ميزان الحروف ، و « **ابن البواب** » الذي تابع عمل ابن مقلة وهذّب طريقته ، و « **ياقوت المستعصمي** » الذي جاء خطه بحيث لم يكتب أحدٌ من قبله مثل خطه وأعجز الكاتبين من بعده . ووصلت الخطوط العربية إذ ذاك إلى ما يقرب من ثمانين نوعاً .

وواكب الدولة العباسية في حمل لواء الخط العربي الدولة الفاطمية في مصر ، والسلاجقة في الشام ، فأجاد السلاجقة خط النسخ ففاقت مصاحفهم مصاحف سواهم روعة وفناً ، بعد أن تم التوقف عن الخط الكوفي في كتابة القرآن الكريم نهائياً . وخطاطو إيران الذين ابتدعوا خط « التعليق » و « النستعليق » و « الشكستة » ، إضافة للأندلس

التي تميزت بطراز خاص للكوفي سُمِّيَ بالكوفي الأندلسي ، والمغرب العربي الذي تميَّز بطراز مغاير اشتقه من الخط الكوفي .

وقد حاولتُ استعراض أهم خطوط تلك الحقبة الذهبية من عمر التاريخ العربي لنلحظ مدى الدقة التي وصل إليها السلف الصالح ، وتلك المهارة التي كان يتمتع بها ، وذلك الإرث الطيب الذي منحه للدولة العثمانية بظهورها على ساحة الزمن العربي . إذ أنه وبظهور هذه الدولة وسلطانها على آسيا الصغرى والوطن العربي كاملاً مع أجزاء كثيرة من أوربة أمكن لها استقطاب جميع الصناع المهرة المتفردين بقدراتهم ، مما أتاح لها أن تخطو بالخط العربي خطواتٍ عظيمة أوصلته إلى أعلى قممه على أيدي خطاطين كبار أمثال « حمد الله الأماسي » و « راقم » و « عبد الله الزهري » و « شوقي » و « الحافظ عثمان » و « نظيف » .

لذا فقد درستُ تاريخ كل خطٍ من الخطوط الحية التي اعتمدها خطاطو اليوم بالمرور على نشأته وواضعه أو واضع أساسه ومن قام على تطويره ، دون التعرض لأصول وقواعد هذه الخطوط ، لأن الكتاب تاريخي أكثر منه تعليمي ، وقمت باستعراض هذه الخطوط إما حسب العصر الذي ظهرت فيه أو حسب مكان وموطن نشأته .

بعد ذلك توقفت قليلاً عند فن « الطغراء » منذ أن أخذت شكلها الأخير الذي اعتمد كتوقيع مميز وخاص بسلاطين آل عثمان ، وأقول « فن » لأن بعض دارسي الخط العربي قد اعتبرها — خطأ — خطاً مستقلاً .

وأتبعت ذلك ببحث ضمّنته أهم أعلام فن الخط العربي الذين استطاعوا أن يضعوا علامة مميزة عبر التاريخ ، لأخص العمالة الكبار الثلاثة مؤسسي هذا الفن الجليل (الوزير ابن مقلة ، وابن البواب ، وياقوت المستعصمي) بنبذة أكبر عن حياتهم لما لهم من فضل على وضعه وتجويده .

ثم أتبعته بفصل خاص عن مواد الكتابة ، لتأثيرها الكبير على إمكانية تطور الخط العربي وللدور الذي لعبه الورق في انتشار الكتابة وزيادة الإبداع والتنميق فيها ، فميزات الورق الفريدة من انخفاض الثمن وسهولة في الكتابة والنقل والتصرف ؛ قد فتحت آفاقاً رحبة واسعة أمام إبداع المبدعين ، لم يكن للجلود والعظام وما إلى ذلك من مواد أخرى أن تعطيها .

والحقيقة أن من أجلّ أعمال العصر الأموي هو نقل صناعة الورق من الصين وبدء إنتاجه في « سمرقند » لتغدو أنواع الورق في العصر العباسي ثابتة الأركان في مزاياها وطرق صنعها بين شامي وبغدادي وطاهري .. ولأنهي الكتاب بعدها باستعراض أهم أدوات الكتابة من أقلام ودوى وأحبار و ... والتي لها من الأهمية ما يفوق التصور ، فأهمية القلم وطول جلفته وميل قطّه ؛ لا يدركها إلا الخطاط المتمرس صاحب الخبرة والذي يشعر كم يفقد الخط من حسنه وبهجته إن لم يلائمه ميل القطّ مثلاً ، وكم سيتشوه خطه إن لم يكن الحبر كما اعتاد عليه هو ، فطرق تحضير الحبر ووصفاته كثيرة كثيرة ، ولكل خطاط طريقته في تحضير حبره ، قد يذيعها وقد لا يذيعها ، إلا أن حبره الذي اعتاد عليه يجب أن يكون ملازمه ، فميزات الحبر الأساسية كالسيولة وسرعة الجفاف والامتصاص و ... كلها تتعلق بأنواع المواد الداخلة في تركيبه ونسبها وطرق التحضير وزمنها ... وقد استعرضت وصفتيّ ابن مقلة وابن البواب — في قصيدته الرائية — عن مزايا وطرق تحضير الحبر بطريقتيهما .

وإنه لمن المؤسف حقاً أننا نسمع بين الحين والآخر ومن فنانين كبار نداءات تدعو لاعتبار الخط العربي عنصراً تشكيلياً بديعاً يضفي على العمل الفني رونقاً وبريقاً وجمالاً ، ويمنح للعمل الفني عنواناً قد يطير به للأفق ، أو أنه قد يحدد قصداً معيناً يعنيه الفنان ، ويتبع هذه النداءات بالطبع طرح قيم تشكيلية وأشكال حديثة للحرف العربي لم نعهدها من قبل ... وكل ذلك بدعوى أن خطاطي اليوم لم يأتوا بجديد ، بل إن جلّ اهتمامهم يرتكز على استهلاك واجترار ما تركه لنا السلف الصالح ، وإن كان الحال كذلك فلنضع باعتبارنا النقاط التالية :

يقول بيكاسو : « إن أقصى نقطة أردت الوصول إليها في فن الرسم وجدت الخط الإسلامي قد سبقني إليها منذ أمد بعيد » . ولئن كان فناناً كبيكاسو — والذي يعتبر أعظم فناني القرن العشرين — يقول هذا ، فإن في عبارته هذه الجواب الشافي على كمال الخط العربي واستقلاله بشخصية متميزة وفريدة سبقت القيم التشكيلية الحديثة ببون شاسع لا حاجة لنا بها أن نعيده إلى الوراء ، ولقد بينت الكثير من لوحات الصوفيين ومنذ مئات السنين تلك الليونة والطواعية الكبيرة التي يمتلكها هذا الحرف أو ذاك التركيب ، فتلك صورة إنسان يتعبد ، وهذه صورة فيل ، وهنا صورة كأس ، وهناك صورة كمثرى ...

كلها من تراكيب خطية طوّعها الفنان كما أراد .

إن دعوى كهذه – إن كانت صحيحة في منطقها – تؤول بنا إلى دعوى أهم ، وهي أن نأتي بجديدٍ في لغتنا وحروفنا، فنضيف أحرفاً جديدة ونلغي أحرفاً أخرى بدعوى التجديد ، فنحن ما زلنا نعيش ونتكلم ما وضعه أجدادنا في علم اللغة والنحو والصرف دون أن نأتي بجديد .

إن التجديد نفسه لا يأتي بين يومٍ وليلة ، فالصورة التي تركها لنا المستعصمي عن خط النسخ ليست بعيدة بُعْدَ خمسة قرون أو أكثر . وبمجموعة الخطوط التي ظهرت في العهد العثماني من ديواني وجلي الديواني ورقعي قد أمست خطوط الحرف العربي تغطي مساحة الذوق كاملة تقريباً ، ولعله السبب الذي أبطأ المبدعين من الخطاطين عن البحث عن شكل جديد للحرف ، بل دفع بهم إلى صب جهودهم في تنميق الشكل نفسه وضمن إطار قواعده الموروثة ليبث كل منهم روحه فيه ، ولعل الخطاطين وحدهم الذين يدركون هذا جيداً ، فلكل خطاط أسلوب يميزه ويبدي ملامحه الخاصة به ، التي لا يكسبها إلا بالخبرة والمراس الطويل .

إن الخط العربي لا يكون خطاً إن لم تنظمه قواعد وأبعاد ثابتة وأشكال محددة ، وكل ما يطرح تحت اسم الخط الحديث ليس إلا زيفاً وقف وراءه كل من عجز عن أن يمتلك الخط العربي بتلك القوة التي امتلكها السلف الصالح من الخطاطين . وعلينا جميعاً أن ندرك أنه ومهما انتشرت مثل هذه المحاولات العابثة فإنها ستبقى محاولات رديفة لفن الرسم والنحت التشكيلي ليس إلا ، وستبقى للخطاطين أمجاد ما ورثوه .

لقد لعب تدني تدريس الخط العربي في المدارس الحديثة لعبته ودوره السيء وإلى أبعد الحدود في العودة بالذوق العام إلى الوراء وحدَّ كثيراً من انتشار الخط العربي على المستوى الجماهيري ، وبحيث أن المتلاعبين بالألفاظ والداعين للتراجع عن الخط العربي لم يعودوا ليجدوا سداً منيعاً يواجه دعواتهم الباطلة تلك .

إن ديناميكية حياتنا التي نعيشها اليوم وابتعادنا عن روحانيات الأمس قد دفع بالكثير من قيمنا إلى الهاوية ، فلا عجب إذاً في جوٍّ كهذا أن نرى غيوماً تعكر صفاء سمائنا وتدعونا للتخلي عن البقية الباقية من الشخصية العربية التي عرف المستشرقون كيف ينخرون فيها وعرف الاستعمار كيف يعمل على إزالتها .

لقد بذلت في إخراج هذا الكتاب إلى النور جهداً كبيراً لأتجنب هناتٍ أرجو ألا أكون قد وقعت فيها ، وعانيت لجمع الصحيح من المعلومات المتناثرة هنا وهناك الكثير ، فمن المؤسف حقاً أن بعض الكتب قد تحوي من خيال المؤلفين أكثر مما تحوي من الحقيقة ، ولكن وبفضل الله وبحمده أنه قد هيأ لي من يمدني بالعون ويصحح لي إن أخطأت ، فهذب لي الأستاذ المجود الخطاط أحمد باري قسماً كبيراً من عملي وزودني بمعلومات قيمة رفعت من مصداقية ما فيه ، جزاه الله كل خير .

وإني لأشكر كل من ساعدني في إخراجه إلى النور ، وأخص منهم فضيلة الشيخ حسان الهندي الذي قام بتنقيحه لغوياً ، وأستاذيَّ الجليلين نجاة العلبي وموفق حمدي الهواري اللذين علماني أسس وقواعد هذا الفن الجليل ، والله من وراء القصد والحمد لله رب العالمين .

بلال عبد الوهاب الرفاعي

دمشق في ٤ محرم ١٤١٠ هـ
الموافق ٦ آب ١٩٨٩ م

الفصل الأول

ظهور الكتابة

يعتقد المؤرخون بأن الكتابة قد ظهرت في أواخر الألف الرابع وأوائل الألف الثالث قبل الميلاد في سومر ، أي في العصر الحجري النحاسي الأخير ، لتضع حدّاً فصماً بين ما يسمى عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية .

وقد بدأ السومريون كتابتهم بالاعتماد على الرسوم والأشكال المبسطة وعلى رُقَم (ألواح طينية) ، مستخدمين قلماً خشبياً رأسه مثلث الشكل دقيق ، أخذ بعدها شيئاً من الغُلظ ، واستمر حتى اختفاء الكتابة المسمارية عام ٥٠ ق . م .

وكانت الكتابة تتم على اللوح وهو في حاله الطري قبل جفافه ، ليؤخذ بعد ذلك ويُشوى ويتصلّب ، فيصعب كسره ويسهل حفظه وتداوله ، وبطبيعة الحال ولكون المسمار خشبياً فإن ذلك منع من إمكانية الكتابة على الحجر أو الألواح المعدنية .

ولما كانت الخطوط التي يخطها قلم كهذا تتأثر بشكل رأسه فإنها كانت تبدو وكأنها رسوم مسامير فأطلق عليها اسم « **الكتابة المسمارية** » أو « **الإسفينية** » أحياناً .

أما عن الرسوم نفسها وكيف استعملت كبداية جيدة للكتابة ، **فإنه قد**

تم استلهامها إذ ذاك من الوسط المحيط ، من الإنسان وبيئته ، والحيوان والنبات بشكل مختصر بعض الشيء ، فللتعبير عن البقرة كان يكفي أن يُرْسَمَ رأسها فقط .

ويبين الجدول التالي أهم هذه الإشارات والعلامات :

جدول (١) : جدول يبين بعض العلامات الصورية السومرية ودلالاتها

كلب	جرة بثقب	كوخ
خنزير	〃 〃	محراب بالجدار
غزال	〃 بأذنه	خيمة
وعل	إناء مزدوج	سور المدينة
كلب	قصعة	محراث
سمك	كأس	عربة
حمار	سلة بغطاء	زحافة
وز	رقيم	مركب
بجعة	قيثارة	قناة
أسد	هاون ومدقه	معزقة
رأس إنسان	حبل	بلطة
يد	حبوب	سهم
ذراع	حزمة	نبلة
قدم	نخل	قوس رمي
ساقان	ورق عنب	سلاح محني
أنثى	زراعة	وتر
ذكر	ثور	حزمة
رجل	بقرة	منقل
كوكب	عجل	كير
مذنب	تيس	جرة

فالكتابة إذاً ظاهرة إنسانية ، وواحدة من أهم معالم التحضّر للإنسان القديم في محاولته للتعبير عن رغباته ومراده ، وهي وإن كانت في حقيقتها مخاطبة شكلية (إن اعتبرنا اللغة مخاطبة لفظية) فإنها قد أعطت مدّاً ودفعاً عظيمين لتقدم وتطور الفكر الإنساني ، حققته من إمكانية اختزان وتصنيف المعارف الجديدة ، وبالتالي إمكانية القفز للبحث عن معارف أكثر حداثة ، فالعقل الإنساني في بداياته كان يستحيل عليه أن يحتفظ بكل المعلومات التي جمعها ويطمئن عليها خوف النسيان .

وكما يروي التاريخ فإن أول محاولة في هذا المجال كانت محاولة الملك « بطليموس الأول » في مصر في القرن الثالث قبل الميلاد ، حين كانت المعلومات مجموعات متناثرة غير متجانسة جمعها ملوك ورؤساء مملكة « إيبلا » في سورية والآشوريون في بلاد الرافدين ومصر والصين والهند ، إذ أمر بإنشاء معبد لآلهة الشعر في الإسكندرية ضمّنه ما يقرب من (٥٠٠,٠٠٠) مخطوط ، إضافة لجمعه حيوانات ونباتات غريبة شتى ، أوكل دراستها لأكثر من مئة عالم ، ودعا الشباب الأذكياء للانخراط في أول معهد أو جامعة عرفها التاريخ .

وفي الجانب الشرقي من وطننا العربي الكبير احتضنت مدينة « نينوى » أكبر وأول مكتبة عرفها التاريخ ، فقد اكتُشف ما يزيد عن عشرين ألف رقيم هي مكتبة ابن أسرحدون على يد المنقب البريطاني « لايارد » عام ١٨٥٠ في الموصل ، وبين عامي ١٨٥٢ و ١٨٥٤ تم اكتشاف مكتبة « نينوى » التي احتوت على العلوم الآشورية ، فاكتشف فيها اللوح الثاني عشر من مجموع اثني عشر لوحاً تضمنت أعمال « جلجامش » فاكتملت « قصة الطوفان » واقتبسها من بعدها عنهم اليهود ، وأوردوها في « سفر التكوين » من التوراة وبما ينسجم مع توجهاتهم العنصرية ، واحتوت أحداث ملحمة جلجامش

أيضاً وملحمة الآلهة عشتار ، إضافة لأسماء نباتات وجبال وأنهار وظواهر جوية وفلكية وعلامات الرياضيات وقواعد اللغة ووصفات طبية ... ورسائل من وإلى ملوك وقادة ، وعقود ومستندات عقارية .

الأطوار الرئيسية لتطور الكتابة :

مرت الكتابة في خمسة أطوار رئيسية قبل أن تعتدل في صورها الحالية ، وذلك تبعاً لتطور العقل الإنساني ونموه بنمو المعلومات والمعارف من حوله ، وهذه الأطوار الخمسة هي :

١ ــ **الطور الصوري** : واعتمد فيه الإنسان على تصوير ما يريد أن يفعل ، فإن أراد أن يذهب للصيد مثلاً رسم رجلاً بيده رمحٌ يطارد حيواناً ، وإن أراد أن يقول شجرة رسمها . ولا شك أنه عانى الكثير من هذه الطريقة في التعبير لكونها تستلزم آلاف الصور ، إضافة لكونها عاجزة عن التعبير عن بعض الأماني والأفكار المجردة .

وقد ظهرت الكتابة الصورية في أربعة خطوطٍ رئيسية هي :

آ ــ الخط الهيروغليفي في مصر .
ب ــ الخط الحثي في بلاد الشام .
جـ ــ الخط الصيني في الصين .
د ــ الخط الآشوري في القرن السابع قبل الميلاد في العراق ، الذي تحول إلى الخط المسماري فيما بعد .

٢ ــ **الطور الرمزي** : وقطع الإنسان في هذا الطور شوطاً كبيراً في التعبير عن الأفكار المجردة فهو إن أراد أن يعبر عن الملك رسم تاجاً ، وعن النهار رسم شمساً .. واستطاع بجمع صور متتالية سرد قصة أراد

روايتها . وإن أردنا استحضار الطور الرمزي في زمننا هذا فلا أدل على ذلك من إشارات المرور . وعلى هذا فإن اعتماد رسم ما ، دلالة على حادثة ما ، يمكننا من تداول ما نشاء من الأفكار ، ولكن المشكلة ظهرت بأن الأفكار لا نهائية العدد وهذا ما يستلزم عدداً لا نهائياً من الأشكال .. وهيهات أن نتمكن من حفظ مثل هذه الأعداد من الأشكال والرسوم .

وقد عرف ما يقارب من ٢٥٠٠ رسم في الكتابة الهيروغليفية ، و ٤٥٠٠٠ في الكتابة الصينية على الأقل .

٣ ــ **الطور المقطعي** : ويعتبر هذا الطور بحق البداية الحقيقية للكتابة الهجائية وانتقال الإنسان من الرسم إلى اللغة ، وكانت الكتابتان البابلية والمصرية القديمة السباقتين إليه ، إذ أنهما اعتمدتا على الاسم بدلاً من الرسم ، فربطتا بين اللفظ والشكل ، فإن أردنا أن نقول (يدرس) رسمنا يداً للدلالة على المقطع (يد) في الكلمة دون أن يُراد اليد نفسها بل صور الياء والدال ، وبهذا فإننا نكون قد انتقلنا من لغة تستلزم آلاف الصور إلى بضع مئات فقط .

٤ ــ **الطور الصوتي** : وهنا مثل الإنسان كل حرف بشكل يمثله ويبدأ اسمه به ، فالحرف (ق) قد تمثله قطة أو قفل .. ونستدرك هنا أن أسماء الأحرف العربية تعبر عن الحرف الأول فيها فقط ، فكلمة (جيم) تعبر عن حرف (ج) فقط ولا تعبر عن الأحرف الثلاثة (ج) و (ي) و (م) ، وهذه هي الحال مع باقي الأحرف العربية ، في حين أن الأحرف الأجنبية افتقدت مثل هذه التسميات للأحرف ، فنحن نقول آ ، ب ، سيه ، كحرف واحد فقط يدل على نفسه .

٥ ـ **الطور الهجائي** : ويمثل هذا الطور قمة قفزات تطور الكتابة والفكر الإنساني على السواء . فقد أمكن للإنسان أخيراً الاستغناء عن الصور الممثلة للحروف ذاتها ، وابتدع علامات تشبه المسامير العمودية والمائلة والأفقية ، واعتبرها حروفاً واعتبر مجموعها كلمات .

ويذهب بعض المؤلفين إلى أن السومريين في وادي الرافدين هم الذين خلطوا الطريقتين الصوتية والرمزية في حدود عام ٣٢٠٠ ق . م ، ليصلوا إلى هذه الأحرف ، حيث ظهرت الأبجدية الهيروغليفية في نفس العام في مصر .

في حين أن مؤلفين آخرين ينسبون فضل هذا الاكتشاف العظيم للفينيقيين الذين امتدت مملكتهم على شواطىء بلاد الشام من اللاذقية شمالاً حتى الكرمل جنوباً والبقاع شرقاً . (الشكل ٢) .

الشكل ١ : كتابة فينيقية اكتشفت على قبر يعود إلى القرن ١١ ق . م

ومهما يكن من أمر فإن الفينيقيين ولكونهم تجاراً ورحّالين عظماء ، فقد تمكنوا من نشر كتابتهم بين شعوب عديدة في الشرق الأوسط ، ومن ثم عند اليونانيين حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ، مثبتين دورهم الرائد كمعلمين للعالم ومساهمين فعّالين في حضارته وعمرانه .

وتؤكد الكتابة التي عثر عليها في منطقة « سرابيط الخادم » في سيناء وجود علاقة بين الكتابتين الفينيقية والهيروغليفية في نفس الوقت الذي أكدت فيه حفريات « رأس شمرا » في اللاذقية شمال الساحل السوري أن الأبجدية الفينيقية هي أولى أبجديات العالم .

ولعل طبيعة منطقتي وادي الرافدين ووادي النيل المتباينتين قد لعبت دوراً كبيراً في تباين أشكال الأحرف بينهما ، ففي وادي الرافدين بدأت الكتابة بالمقاطع المسمارية على (الرقم) أي الألواح الطينية ، وبدأت في وادي النيل بالحروف والمقاطع الساكنة على ورق البردي ، وكانت طبيعة كل من المنطقتين هي التي فرضت استعمال أدوات الكتابة ، ففي العراق استخدم القصب بغرزه في ألواح الطين الطري فبدت الكتابة على شكل مسمار فأسميناها كتابة مسمارية كما مر معنا ، أما في مصر فقد استخدم ورق نبات البردي الذي يكثر في مستنقعات البلاد ومياهها فسهل نقله وحفظه ، واتخذت الكتابة شكل صور سميت الهيروغليفية أي الكتابة المقدسة ، لأن الغرض من اكتشافها كان دينياً .

وبقيت الهيروغليفية كتابة دينية ورسمية قبل أن تأخذ أشكالاً أكثر بساطة وأقل تزييناً ، وهي التي عرفت بالكتابة الهيراتيقية ، والتي استمرت في التبسيط لتصل إلى الكتابة الديموتيقية ، التي شاع استخدامها في المعاملات التجارية والمراسلات والآداب ، واستمرت الكتابة بها حتى عهدي البطالسة والرومان .

ونظراً لأن معظم صور الكتابة الهيروغليفية كانت صوراً لحيوانات ونباتات منطقة الدلتا وليس الصعيد ، فإن الاعتقاد الأوفر حظاً أن الكتابة قد نشأت على الوجه البحري ، وكان على جيرانهم الفينيقيين والآراميين تعلم لغة البلاد

التي يتاجرون معها ، فقد ظهر الكثيرون منهم يعرفون البابلية والمصرية واليمنية والإغريقية لتسجيل الحسابات وتوثيق العقود ، مما دفع بالكتابة إلى البساطة أكثر وأكثر حتى تظهر أول أبجدية في التاريخ .

وقد تطورت الأبجدية الفينيقية إلى أن وصلت إلى شكلها في « رأس شمرا » على لوح محفوظ في متحف دمشق الوطني يحوي ثلاثين حرفاً يرجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، إلى جانب أبجديات أخرى تمثل المراحل السابقة ، تم العثور عليها في سيناء وبعض المدن الفينيقية . واكتشفت أبجدية أوغاريت الكنعانية عام ١٩٢٩ م ، وتعتبر هذه الأبجدية أول أبجدية في العالم قامت باختزال الخطين المسماري والهيروغليفي لتصبح أساس الخطوط الحديثة . وتقرأ هذه الأبجدية من اليسار إلى اليمين ، وتتألف علاماتها من مسمار أو مسمارين حتى أربعة عشر مسماراً ، ونادراً سبعة مسامير ، وفي حين أن بعض البحاثة يعتبرها مؤلفة من ٣٠ حرفاً ، فإن بعضهم الآخر يعتبرها ٢٩ حرفاً فقط ، والحجة في ذلك أن السين لها شكلان مختلفان .

ويقول « إدوارد دور » حول الأبجدية الأوغاريتية : (أمام أعيننا نوع من ولادة عفوية وطريقة متخلصة تماماً من هذا المزيج المتشابك من القيم المقطعية والرمزية ، والتي تجعل الإشارات المقطعية والرمزية المسمارية معقدة جداً ، وفي عهد قريب من عهد رُقم تل العمارنة أحلّت عبقرية إنسان أو عرق من العروق أبجدية بسيطة وسهلة جداً محلّ كتابة صعبة إلى أبعد الحدود) .

بينما يقول « فيرولو » في الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٥٠ : (إننا لا شك لن نعرف أبداً اسم مخترع الأبجدية ، ولكننا نعرف الآن أنه كنعاني أو بشكل أعمّ أنه سوري ، ويمكننا القول أن شعباً أنجز مثل هذه المعجزة يستحق عرفاننا بالجميل ، وله الحق بعرفان متميز في تاريخ العالم) .

وفي حين أن الفينيقيين قد حملوا معهم أبجديتهم وكتابتهم عبر أمواج البحر إلى الشمال الأفريقي والأندلس ومناطق أخرى ، فإن الآراميين حملوا لغتهم بسبب تجارتهم الداخلية البرية إلى جميع أنحاء الصحراء العربية وبلاد الرافدين وفارس ، حتى غدت اللغة الآرامية لغة عامة عند شعوب المنطقة نطقاً وكتابةً طغت على اللغات المحلية الأخرى ، حتى استخدم ملوك آشور في قصورهم كتبة على الرق للكتابة باللغة الآرامية وكتبة على الرقم للكتابة باللغة المسمارية الأكادية ، أما أثناء الحكم الفارسي فقد أصبحت اللغة الآرامية لغة الدولة الرسمية في مختلف أملاك الامبراطورية .

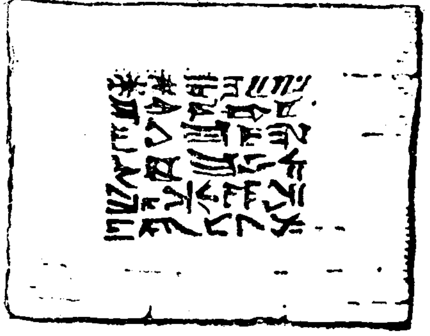
كشف الكتابتين الهيروغليفية والمسمارية :

تم الكشف عن رموز هاتين الكتابتين في القرن الماضي وفي وقت متقارب جداً ، فخلال الحملة الفرنسية على مصر تمكن المستشرق « دوساسي » والذي كان مرافقاً للحملة من قراءة اسمي « بطليموس » و « كليوباترا » بالهيروغليفية ، إذ وجدهما بكتابة يونانية ، فاستنبط من ذلك أن كل ما يراه من صور تملأ آثار مصر ما هي إلا أحرف للغة كانت سائدة فيما مضى ، وفي الآن عينه تم اكتشاف « حجر رشيد » الذي حوى نحتاً لكتابة بثلاث لغات هي الهيروغليفية والديموتيقية واليونانية ، تمكن من خلاله العالم الفرنسي « شامبليون » من فك رموز وألغاز الكتابة المقدسة الفرعونية عام ١٨٢١ م .

أما الكتابة المسمارية أو الإسفينية ، فقد فشلت جميع جهود الباحثين حتى أوائل القرن التاسع عشر من فك رموزها ، إلى أن عثر « روبنسون » الإنجليزي على « حجر بهيتسون » في إيران ، والذي تضمن نصوصاً باللغات القديمة الفارسية القديمة والآشورية والبابلية ، فعكف على دراسته مدة اثني عشر عاماً كاملة حتى أمكن له قراءة النص المكتوب عام ١٨٤٧ م ، وحل الكثير من

رموز هذه الكتابة ، وبعد ذلك تابع العلماء بحثهم ودراستهم إلى أن تمكن العالم الإنجليزي « سيس » في عام ١٨٨٠ م من نشر دراسة كاملة عن الكتابة المسمارية مع صورة إجمالية لنحو وقراءة هذه اللغة .

وأخيراً نشير إلى أنه بينما انتشرت الكتابة المسمارية من بابل وآشور إلى عيلام وأرمينيا وفارس وفلسطين ، نجد أن اللغة الهيروغليفية لم تخرج خارج وادي النيل لكونها لغة دينية مقدسة احتكرها الكهنة والمقربون إليهم ممن عمل في خدمتهم .



الشكل ٢ : نموذج من الكتابة المسمارية وفيه يذكر اسم الملك بختنصر

الأبجدية :

أدى اتصال واحتكاك الفينيقيين بمختلف لغات وشعوب العالم القديم إلى فكرة اختزال الكتابة لتولد الحروف الهجائية لأول مرة في التاريخ . فقد أصبحت الكلمة عندهم تكتب بعدة حروف معينة ، استقوها من مصادر مختلفة بعد طول تمرس بالإشارات الكتابية في مصر وبابل ، والتي كانت تعد بالمئات ، أمكنهم اختصارها إلى ٢٢ حرفاً فقط تسهيلاً للكتابة وتعلّم القراءة ، وقد اعتمدوا لاختيار أشكال الأحرف الأسماء التي تدل عليها ، فحرف العين مثّلوه بشكل العين ، وحرف الباء بشكل البيت ...

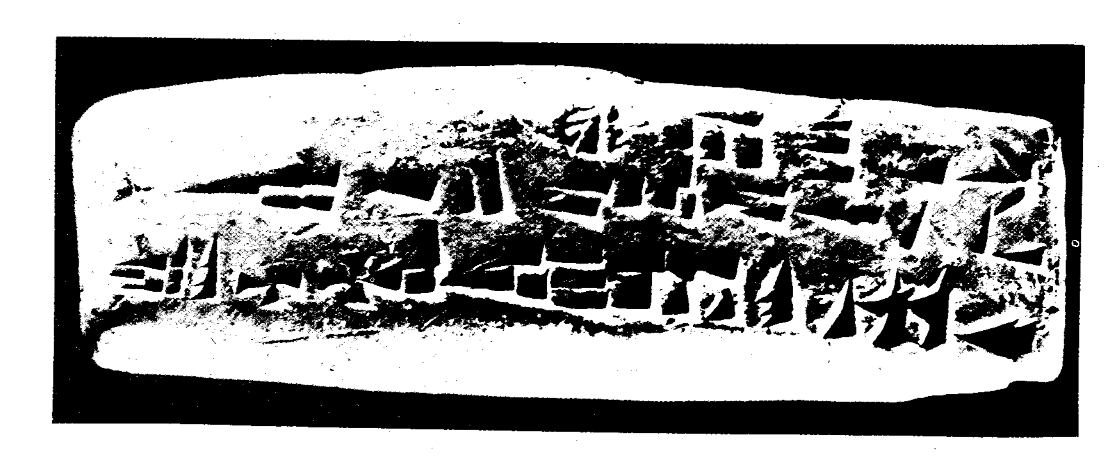
وفي عام ١٩٤٨ م اكتشف « شيفير » لوحة في « رأس شمرا » بمدينة أوغاريت على الساحل السوري شمال اللاذقية يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، عليها أبجدية كاملة تضم الحروف التي اعتمدها السوريون العرب القدماء (شكل ٣) . تلاها اكتشاف مجموعة من الألواح الطينية التي تدل على غزارة الأدب والكتابة ، ووجود المدارس التي تعلّم شتى اللغات ، وقواميس لتفسير كلمات هذه اللغات .

وهنا لا بد لنا من استذكار ما قاله الباحث « جورج بيرد » : (إن ابتكار الأبجدية كان حدثاً هاماً لا يمكن مقارنته بأي حدث آخر في تاريخ الجنس البشري ، وهو أعظم من ابتكار الطباعة إذ أن تحليل الكلام وإرجاعه إلى عناصره الأولية يحتاج إلى عمل فكري عظيم) .

وكان قد سبق للعالم « مونتيه Montet » أن اكتشف في عام ١٨٢٢ م كتابة في « جبيل » منقوشة على ضريح « احيرام » والد « ايشويعل » ملك جبيل ، والذي يعود للقرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وتمثل هذه الكتابة أبجدية ما زالت تعتبر حتى الآن الشكل الأول للحرف الأبجدي العربي واللاتيني .

ويمثل « نقش احيرام » نصاً كاملاً واضحاً ، بسبب اعتماد الحرف في صيغته وشكله على دلالته لأشياء معروفة ، ومع ذلك فإن دعانا رسم الحرف للشك به أسعفنا اسم الحرف ذاته .

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن تسميات حروف اللغتين الكنعانية والفينيقية هي ذاتها تسميات الحروف العربية بسبب وحدة اللغتين ، والجدول (٢) يدلنا بوضوح على مدى ارتباطهما ببعض من جهة وبلغتنا العربية من جهة أخرى :



الشكل ٣ : أبجدية رأس شمرا (أبجدية أوغاريت) عثر عليها في اللاذقية — سورية — تعود إلى القرن ١٤ ق . م ، وفيها الأبجدية الأولى المؤلفة من ثلاثين حرفاً مكتوباً بالخط المسماري

جدول (٢)

الحرف	التسمية العربية	التسمية	المعنى	الرمز أو طريقة الرسم	الشكل «أبجدية جبيل»
ا	ألف	ألف	بقرة	رأس بقرة بقرنين	𐤀
ب	باء	بيت	منزل	مخطط غرفة أو صحن دار	𐤁
ج	جيم	جيمل	جمل	سنم	𐤂
د	دال	داليت	دلاية	دلاية أو مطرقة باب	𐤃
ي	ياء	ياد	يد	الزند والساعد	𐤉
ك	كاف	كوف	كف	مشابه لكف اليد	𐤊
ر	راء	رأس	رأس	شكل الرأس	𐤓
س	سين	سين	سن	شكل الضرس	𐤎
م	ميم	ميم	ماء	شكل تموج	𐤌

الفصل الثاني

أصول الكتابة العربية

انتشار الأبجدية الأولى :

انتقلت هذه الأبجدية إلى الكتابة الآرامية والنبطية فالعربية الأولى فالعربية الحديثة . كذلك انتقلت إلى الإغريقية واللاتينية ، كما يبين الجدول (٣) ، إذ يذكر « هيرودوت » الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد أن الفينيقيين نقلوا كتابتهم مع تجارتهم ، وكان اليونانيون إذ ذاك في أحوج ما يكونون للكتابة لتدوين تاريخهم ، والجدول (٤) يوضح الأحرف السابقة للأحرف العربية الحديثة ، في حين يوضح الجدول (٥) تطور الخط العربي .

نشأة الكتابة العربية :

اختلفت الآراء كثيراً جداً حول نشأة الكتابة العربية ، وهذا أمر طبيعي جداً ، ذلك أن كل ما يتعلق باللغة هو من وضع الشعب الناطق بها قبل أن يأتي دور النحوي المتتبع لها ، والكتابة هي وجه من وجوه أي لغة حضارية ، قد يطوِّر فيها أحدهم فينال عمله رضا الناس فيأخذون به ، وسرعان ما ينتشر دون أن يفكر أحد بتأريخ حركته المتطورة هذه ، نظراً لكونها ليست حركة انقلاب جذري لكل الأحرف ، إنما حركة غاية في البساطة يأتي مِن بعده مَن يطوِّرها . وهكذا نجد أنفسنا في النهاية أمام مجموعة كبيرة من

جدول (٣) مقارنة بين « أبجدية جبيل » والأبجديات المشتقة عنها

اللاتيني	اليوناني	الفينيقي ٧ ق.م	أبجدية جبيل	السوري	العربي
A	A	ɑ	K	l	أ
B	B		9	ـر	ب
G	Γ	)	ר	⊃	ج
D	Δ	o	O	⊃	د
		∃	∃	ه	هـ
V	ϒ	Y	Y	9	و
Z	Z	]		ر	ز
H	H	日	‡	ـ	ح
	Θ	⊕	⊕	ط	ط
E	E	\	Z	S	ي
K	K	ꓘ	V	ك	ك
L	Λ	Γ	(	J	ل
M	M	~	≷	ـمـ	م
N	N	~	ﻟ	ن	ن
S			ǂ	ـسـ	س
O	O	o	o	x	ع
F	Φ	)	7	9	ف
				ص	ص
		Φ		9	ق
R	P	9	9	ر	ر
S	Σ	~	W	ش	ش
T	T	T	+	ـ	ت

جدول (٤) الأحرف السابقة للأحرف العربية الحديثة

خط الرقعة الحالي	الآرامية القديمة			تدمري	ارامي حديث	سبأي حديث	حرف لاتيني
	القرن ٨ ق م	القرن ٦ ق م	القرن ٤ ق م				
ا							a
ب							b
ج							g
د							d
هـ							h
و							w
ز							z
ح							h
ط							t
ي							y
ك							K
ل							L
م							M
ن							N
س							S
ع							C
ف							f
ص							s
ق							q
ر							r
ش							sh
ت							t

جدول (٥) تطور الحرف العربي

نسخ حديث	نسخ قديم	كوفية	عربية: القرن الثامن م.	عربية قديمة
ا				
ب				
ت ث				
ج				
ح خ				
د ذ				
ر				
ز				
س				
ش				
ص ض				
ط ظ				
ع غ				
ف				
ق				
ك				
ل				
م				
ن				
هـ				
و				
ي				

التطورات الصغيرة والبسيطة التي قلبت بمجموعها الكتابة كلها رأساً على عقب بالمقارنة مع أساس الكتابة نفسه على مبدأ (نقطة ماء فوق أخرى .. تشكل سيلاً في النهاية) .

ومع هذا فإن هناك آراء كثيرة للقدماء وللمحدثين من أهل عصرنا بعد أن صار التاريخ كله أسير ما نكتشفه من أثريات ومخطوطات ... وتحرر نهائياً من أحلام وتوقعات المؤرخين . ولا مانع هنا من استعراض بعض هذه الآراء برغم ما فيها من الغرابة ، ويجدر الانتباه هنا إلى أن المقصود بالكتابة العربية الكتابة التي وصلتنا في صدر الإسلام وكُتِبَ بها القرآن أي كتابة أهل شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام ، وهذه الآراء هي :

١ ــ التوقيف .
٢ ــ الجنوب (حمير) .
٣ ــ الشمال .
٤ ــ الخط المصري القديم .
٥ ــ الرأي الحديث .

١ ــ التوقيف : ذهب الكثيرون من البحاثة العرب القدامى إلى أن الكتابة العربية هي من وضع الله عز وجل بتعليم أو إيحاء منه ، فقد قال « أحمد بن فارس بن زكريا الرازي » : (إن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام ، قبل موته بثلاثمائة سنة) كتبها في طين وطبخه ، فلما أصاب الأرض الغرقُ وجد كل قوم كتاباً فكتبوه ، (فأصاب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي) ثم يتابع قائلاً إن الخط توقيف لما ورد في سورة العلق ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

أما « القلقشندي » فقد ذكر في كتابه « صبح الأعشى في كتابة الإنشا » أن النبي أخنوع (وهو النبي إدريس) أو النبي إسماعيل هو أول من عَلِمَ الحروف العربية ، أو العربية عن طريق الوحي .

ولعدم اعتماد هذا الرأي على أساس علمي فقد ناقش بعض المؤرخين هذا الرأي ودحضوه ، فمثلاً قرر « ابن خلدون » في مقدمته « أن الخط من جملة الصنائع المدنية والمعاشية ، فهو على ذلك ضرورة اجتماعية اصطنعها الإنسان ورمز بها للكلمات المسموعة ، والكتابة على ما هو معروف هي المرتبة الثانية من مراتب الدلالة اللغوية ، تابعة في نموها وتطورها شأن كثير من الصناعات المعاشية لتقدم العمران . ولهذا السبب تنعدم عند البداوة وتكتسب بالتحضر ، لا يصيبها البدو عادة إلا مقيمين على تخوم المدينة » . والمعروف أن العرب اشتغلوا من قديم الزمن بنقل التجارة عبر شبه الجزيرة العربية بين اليمن والبتراء وجنوب الشام ، وقد كان لقريش — بوجه خاص — علاقات تجارية مع أهل الشام وأهل الجنوب ، مع الأنباط والغساسنة في تخوم الشام ، ومع المناذرة واللخميين في إقليم الحيرة ، مع العرب الجنوبيين في اليمن . فضلاً عن رحلتي الشتاء والصيف إلى تلك الأنحاء ، وكانت تقوم بهما قريش بقصد التجارة والكسب في الجاهلية ، فأفادت منهما كثيراً من أسباب الحضارة ومظاهر العمران) .

٢ — **الجنوب (حمير)** : أرجع بعض المؤرخين الكتابة العربية إلى خط المسند الحميري في اليمن بسبب امتداد سلطان دولتي سبأ وحمير في القرنين الأول والثاني قبل الميلاد على الأمم العربية الشمالية وفرضها ثقافتها عليهم ، وبخاصة أن مؤسسي دولة سبأ قد نزحوا من إقليم الجنوب إلى شمالي نجد . ولكن ما أكد خطأ هذا الرأي كان أولاً عدم وجود علاقة ظاهرة بين خطوط

حمير في اليمن وخطوط العرب الشماليين التي وصلتنا ، وثانياً أن النقوش الحميرية لم يعثر عليها إلا في بلاد مدين و لم تتجاوزها حين امتداد سلطان اليمن السياسي ، وأن ظهورها في تلك الأنحاء كان أثراً من آثار الاستعمار اليمني لديار اللحيانيين والثموديين والصفويين في الشمال والذي زال بزوال ذلك السلطان ، ومن الطريف أن نذكر هنا أن « القلقشندي » قد ذكر في كتابه « صبح الأعشى في كتابة الإنشا » أن أول من كتب الخط العربي هو « حمير بن سبأ » ، وأنه عُلِّمَ هذا الخط في المنام . ونرى في الشكل (٤) نموذج من الخط المسند ولغة اليمن .

٣ — **الشمال (الحيرة)** : ويطلق على هذا الرأي اسم الرأي الاصطلاحي أيضاً ، ويقول أن الكتابة العربية هي من وضع البشر وليست مُنْزَلَةً من عند الله عز وجل ، ومن الروايات التي حملت هذا الرأي نجد رواية « البلاذري » الذي يروي عن ابن عباس بن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن جده وعن الشرقي القطامي أن ثلاثة من طيء اجتمعوا في بقة هم : مرامر ابن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة ، أما مرامر فوضع الصور، وأسلم ففصل ووصل ، وعامر وضع الإعجام ، فتعلم منهم بعض من أهل الأنبار الذين نقلوه لنفر من أهل الحيرة .. ثم يقول : (وكان بشر بن عبد الملك الكندي أخو الأكيدر صاحب دومة الجندل والتي تقع شمال الجزيرة العربية يأتي الحيرة فيقيم فيها لحين فتعلم الخط العربي من أهلها ، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلمهما الخط ، فعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتبا ، ثم أتى بشر وأبو قيس الطائف في تجارة يصحبهما غيلان ابن سلمة الثقفي وكان قد تعلم الخط منهما فتعلم منهم نفر من أهل الطائف ..

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

يقرأ هذا النقش هكذا :

(١) ب . و . وهق ... جنا وصوابت ومحفدت هجر همو .

(٢) مبرام حسم وا ... م ... ٢ ووسفو وريمو كل جنا هو وصوبت .

(٣) ... جنا هو وصو بتهو ومحفد تهو بن مريمهو عدي ثرتهو وهدبوهو وهعقين .

(٤) خدعو وهبقو لخلفهو مصر عتم مبرا ومقيح كل صدقم بن موثرم عدي ت .

(٥) ... ن بمقم مراهيمو عثتر شرقون واشمهسو والال تهمو وباخيل ومقيت خميس .

(٦) حن بورخن ذقيصن ذبخرف ذلشتت وتسعى وثلث ماتم بن خرف مبحض بن ابحص .

أما ترجمة النقش فهي :

(١) ... (وأصلحوا مرة أخرى) السور و .. أبراج مدينتهم .

(٢) بأدوات البناء ووسعوا كل سور و ...

(٣) وسورها .. وأبراجها من أعلى إلى أسفل مكان رزينوهاب ... وأبراجها للحراسة .

(٤) وعمروا الخلف (؟) على هيئة باب حصن بأحسن أدوات البناء وفن التعمير من أسفل إلى أعلى .

(٥) بمجد سيدهم عشتر المشرق وآلهة الشمس وسائر الآلهة وبحول وقوة الخميس (الجيش) .

(٦) في شهر ذي فيصن من ثلاثمائة سنة بعد مبحصن بن ابحص .

الشكل ٤ : نموذج من خط المسند ولغة اليمن

ثم مضى بشر إلى ديار مصر فتعلم الخط عنه نفر منهم ثم رحل إلى الشام فتعلم الخط منه أناس هناك . وهكذا عرف الخطّ بتأثير الثلاثة الطائيين وبشر عددٌ لا يحصى من الخلق في العراق والحجاز وديار مصر والشام) .

ويبين كلام « البلاذري » هذا أن الكتابة العربية قد زحلت رحلتها الأخيرة إلى الحجاز في نهاية القرن السادس الميلادي ، وهو الخط الذي نجد فيه صورة خطوط النقوش جميعها ، والتي سنمر على استعراضها فيما بعد ، وقد أفدنا من رواية « ابن النديم » وما اكتشفناه من أوراق البردي أن خط المدينة كان أنواعاً ، منها المدور والمثلث والتئم (الذي جمع بين النوعين) .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الرواية مشكوك في صحتها ، وبخاصة أن السجع في أسماء مرامر وأسلم وعامر يثير فينا الحلم أكثر من الواقع ، وحتى إن صحت فإن عملهم قد لا يتجاوز ابتكار أو تطوير خط استعاروه من الأنباط .

وفي رواية أخرى ذكرها القلقشندي وابن النديم في صبح الأعشى والفهرست هي أقرب للخيال والأسطورة ، قالا إن ستة أشخاص من طسم هم أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت اجتمعوا عند عدنان بن أدد ووضعوا الكتابة والخط على أسمائهم وألحقوا بها الأحرف التي لم ترد في أسمائهم وأسموها الروادف وهي الثاء والخاء والذال والظاء والغين والضاد .

والحقيقة أن الكثيرين من البحاثة مالوا إلى نشأة الخط العربي في الحيرة ، وقالوا إن القلم العربي كان يطلق عليه اسم الجزم والذي بدوره جاء من خط المسند اليمني ، والجزم على ما جاء في القاموس المحيط للفيروز أبادي (الجزم في الخط تسوية الحروف ، والقلم لا حرف له،وهو الخط المؤلف من حروف المعجم لأنه جزم أي قطع عن خط حمير) .

وأورد « ابن خلكان » في كتابه « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » : (انتقل الخط الحميري إلى الحيرة في عهد المناذرة) .

وأضاف « ابن خلدون » في روايته عن أهل الكتابة العربية الشمالية في مقدمته بأن (أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها الحيرة من التبابعة وحمير من اليمن) .

وجاء في مصور الخط العربي لناجي زين الدين حول أصول الخط العربي وتسميته بالجزم (لأن الخط الكوفي كان أولاً يسمى الجزم قبل وجود الكوفة لأنه جُزم أي اقتطع وولد من المسند الحميري ، ومرامر هو الذي اقتطعه ولعله وضع صوره) وأضاف أيضاً (الخط الكوفي قديم الوضع ، وضعه سيدنا إسماعيل ...) .

وقد أورد القلقشندي في صبح الأعشى عن أبي العباس البوني ذكره في كتابه « لطائف الإشارات في أسرار الحروف المعلومات » للرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه يجيب فيه الصحابي الجليل أبا ذرٍّ الغفاري بكلمات منها : « يا أبا ذر : والذي بعثني بالحق نبياً ! ما أنزل الله تعالى على آدم إلا تسعةً وعشرين حرفاً » .

وقد بنى الكثيرون من البحاثة عليه حجتهم في دعم رأي التوقيف الذي سبق أن استعرضناه ، ولكن الرجوع إلى الكثير من مراجع الحديث قد بين لنا عدم وروده بين الأحاديث الصحيحة السند ، وغالب الظن أنه موضوع لا أساس له .

٤ ــ الخط المصري القديم : يرى « حفني ناصف » في كتابه تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية و « محمد طاهر الكردي » في كتابه تاريخ الخط العربي وآدابه ، أن الكتابة الهيروغليفية هي أصل الكتابة في العالم كله ، إذ

نشأت على شكل صور في وادي النيل ليأخذها الفينيقيون ويحولوها لحروف هجائية ويعلموها لليونان في القرن السادس عشر قبل الميلاد ومن ثم للآشوريين ، وعرفت بالكتابة الآرامية وعرفها أصحاب المسند وهم الحميريون .

٥ ــ **الرأي الحديث** : غلب الرأي الآن إلى أن خروج القبائل العربية من الجزيرة العربية إلى تخوم الشام واستقرارها أدى إلى تحضرها وتمدنها وبخاصة بعد احتكاكهم بالرومان ، حيث أمكنها بناء أسس ثقافية وحضارية تختلف عما هي عليه عند العرب الجنوبيين .

ومع تراجع الدولة الرومانية وبدء انحطاطها عظم شأن هذه القبائل المتمرسة بفنون القتال والتجارة فنشأت منها دول مستقلة كالدولة النبطية التي امتدت من سيناء إلى شمال الجزيرة العربية وحوران ومشارف الشام والتي اتخذت مدينة البتراء (أي الصخرة) عاصمة لها . و لم تلبث هذه الدولة النبطية الفتية أن أغارت على أقاليم آرامية فتحضرت بحضارتها واكتسبت لغتها واشتقت لنفسها خطاً على الرغم من احتفاظها بلغتها العربية كلغة للشؤون الخاصة والأحاديث اليومية .

وبالرغم من زوال الدولة النبطية في أواخر القرن الثاني الميلادي فقد ظلت كتابتهم موضع اعتماد للعرب النازلين من أقصى شمال الجزيرة العربية ما يقرب من ثلاثة قرون . وهذا ما يدفعنا للاعتقاد أن العرب قد مروا بثلاثة أدوار .

ــ المرحلة الآرامية : وفيها اعتمدوا الأحرف الآرامية التي تميل للتربيع ومن سلالتها التدمرية والعبرية .

ــ المرحلة النبطية : أخذ الأنباط الأحرف الآرامية واستنبطوا منها أحرفاً خاصة بهم .

– مرحلة النضوج النبطية: وفيها أخذت صورة الحرف النبطي تميل للتدوير على الرغم مما يبدو فيها من نزوع للتربيع .

ويعتقد الكثيرون من البحاثة أن العرب الشماليين اشتقوا خطهم من آخر ما وصل إليه الأنباط ، تماماً كما أخذ الأنباط خطهم عن الآراميين ، والصورة الأولى للقلم العربي لا تبعد كثيراً عن الخط النبطي ولم يتحرر الخط العربي كخط مستقل إلا بعد قرنين من الزمن .

ويرجح أن تكون الكتابة قد وصلت الجزيرة العربية بأحد طريقين :

آ – الطريق الدائر من حوران إلى وادي الفرات الأوسط حيث الحيرة والأنبار ثم إلى دومة الجندل فمكة والطائف .

ب – من ديار النبط للبتراء إلى العلا فشمال الجزيرة حتى المدينة ومكة .

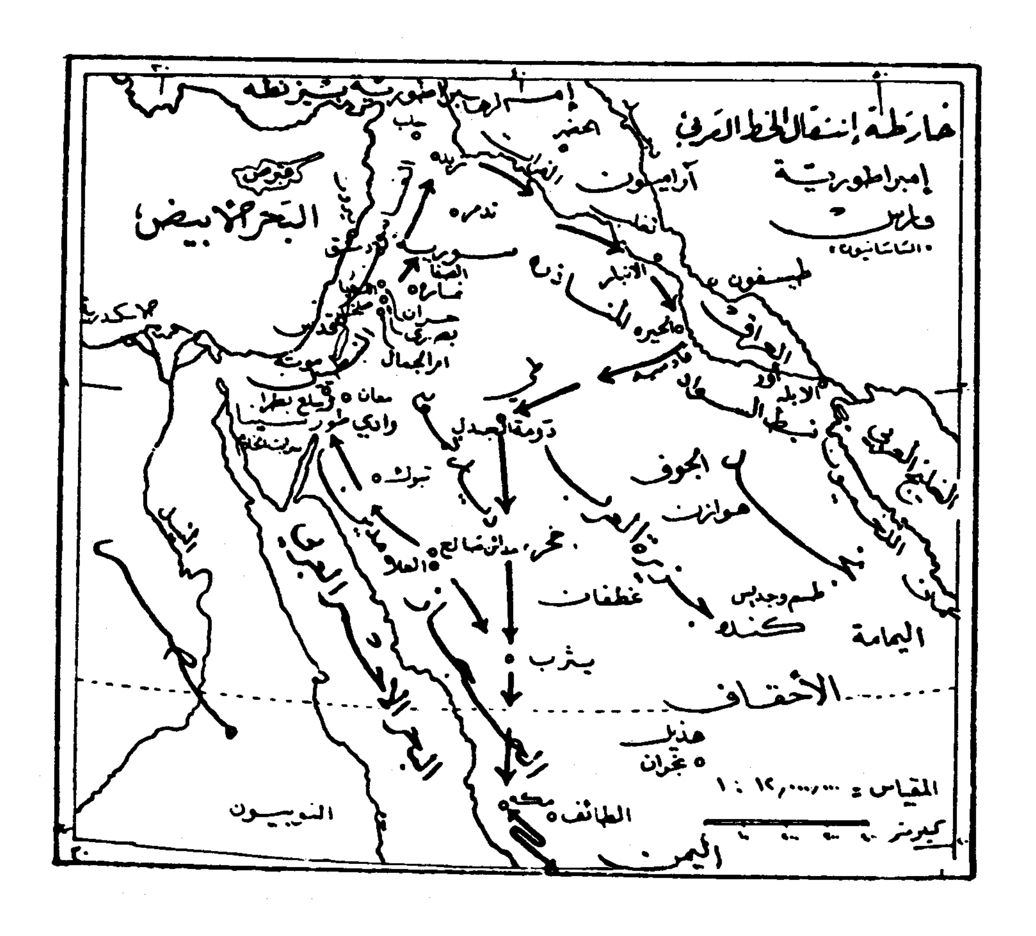
وذلك في الفترة بين منتصف القرن الثالث ونهاية القرن السادس ، والتي أخذ الخط العربي فيها صورته الحالية متحرراً من الصورة أو الطابع النبطي .

ومما زاد في قوة هذه النظرية وجود سوق نبطية في المدينة في نهاية القرن الخامس الميلادي تدل على وجود علاقات تجارية هامة بين بلاد النبط والحجاز إضافة إلى الدور الهام الذي لعبته رحلات الشتاء والصيف على الصعيدين التجاري والثقافي .

ونرى في الشكل (٥) خارطة انتقال الخط العربي .

النقوش :

تنتشر النقوش انتشاراً لا بأس به في الجزيرة العربية وبلاد الشام واكتشف منها عدد نستعرض فيما يلي بعضاً منه وعلى قسمين اثنين تبعاً للمرحلة الزمنية الخاصة به ، فالقسم الأول ويشمل نقوشاً ثمودية ولحيانية وصفوية ، هي أقرب



مواطن نشوء الكتابة ، والخطوط العربية الأولى

الشكل ٥ : خارطة انتقال الخط العربي

للخط المسندي منها إلى النبطي ، وفي القسم الثاني نستعرض أم الجمال والنمارة وزبد وحران وأم الجمال الثاني ، وهي النقوش التي بدأت مع الأنباط أو تلتهم .

نقوش القسم الأول : يقرأ خط المسند من اليمين إلى اليسار ، كما هو الحال مع الكتابة الكنعانية والآرامية والعربية ، كما يمكن قراءته من اليسار إلى اليمين كما هو الحال مع اللاتينية واليونانية وما يتفرع عنهما . وقد أزاحت

اكتشافات النقوش التالية النقاب عن ثلاث مجموعات متشابهة منقورة في الصخر شديدة الشبه بالنقوش العربية اليمنية القديمة،ولهجاتها قريبة من عربية معلقات الشعر الجاهلي والقرآن الكريم وهي :

أ ــ **النقوش الثمودية** : تم اكتشاف عدد منها في أماكن مختلفة من وسط الجزيرة وشمالها ، ووزعت هذه النقوش على طوائف مختلفة تتراوح في تاريخها بين القرن الرابع قبل الميلاد والخامس الميلادي .

ب ــ **النقوش اللحيانية** : وعثر على معظمها في منطقة العلا شمالي الحجاز ، وتقسم هذه النقوش إلى مجموعتين قديمة ومتأخرة ، ويرجع تاريخ هذه وتلك إلى القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد .

جـ ــ **النقوش الصفوية** : وتنسب إلى تلول الصفا البركانية الواقعة شرقي اللجاة في منطقة حوران ، ويمتد تاريخها من القرن الأول قبل الميلاد إلى منتصف القرن الرابع الميلادي .

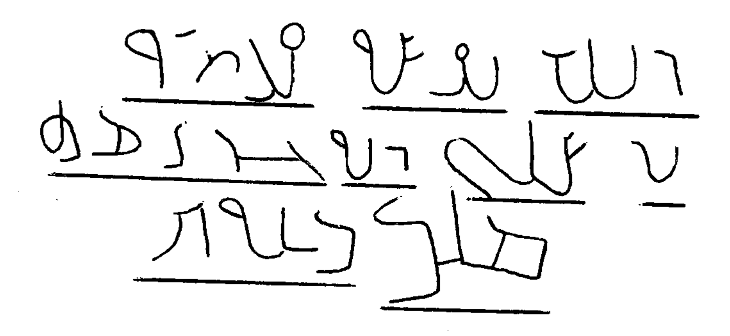
وكما نلاحظ فإن هذه النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية تغطي فترة زمنية تقارب تسعة قرون . ويلاحظ أيضاً أن لغة هذه النقوش شديدة القرابة من العربية الصريحة التي انتشرت مع الإسلام ، رغم وجود بعض وجوه الخلاف والتي من أهمها أداة التعريف فأداة التعريف في العربية هي (الـ) ، وفي النقوش يعتبر حرف الهاء أداة تعريف كما هو الحال في الكتابة الكنعانية والعبرية القديمة ، بينما نجد حرف النون في آخر الكلمة للتعريف في الكتابات الجنوبية المعينية والسبئية والقتبانية والحميرية أي في الكتابة المسندية .

نقوش القسم الثاني : وتؤكد مجموعة نقوش هذا القسم أن الكتابة ظهرت أول ما ظهرت في جبيل ثم انتقلت إلى الآراميين فالأنباط الذين طوروها حتى وصلت إلى العربية عبر مراحل تطورها الأخرى ، وأهم ما اكتشف من هذه

النقوش حتى الآن نجد :

آ ـ **نقش أم الجمال* الأول** : وتعود هذه الكتابة إلى أواسط القرن الثالث الميلادي ، وتتميز بشدة اقترابها من الكتابة النبطية لدرجة أن العالمين « ليتمان Litman » ثم « ستاركي Starcky » اعتبراها نبطية وتم قراءتها على اعتبار أن كل ما تحته خط هو كلمة مستقلة :

دنه	نفشو	فهرو	بر	سلي	ربو	جذيمة	ملك	تنوخ
هذا	قبر	فهر	بن	سلي	مربي	جذيمة**	ملك	تنوخ



الشكل ٦ : نقش أم الجمال الأول

والواقع أن أهمية هذا النقش تعود إلى تاريخه لكونه تاريخ بدء استعمال القلم النبطي عند ملوك العرب ، إضافة إلى أن هذه الكتابة حسب رأي « جواد علي » تدلنا على الصلة التاريخية بين الأسر الحاكمة لعرب العراق وعرب الشام .

* أم الجمال : قرية تقع جنوبي بصرى الشام بمحافظة درعا في سورية وتحوي آثاراً بيزنطية ونبطية وعربية .

** جذيمة بن مالك أحد أوائل ملوك الحيرة التنوخيين والملقب بالأبرش وبالوضاح وينسبه الإخباريون العرب إلى العاربة الأولى .

ب ــ **نقش النمارة** : وقد اكتشفه العالمان « دوسو وماكلي » عام ١٩٠١ م على بعد ميل من النمارة (إحدى مناطق حوران جنوب سورية) ، وعلى أطلال معبد روما شرقي جبل العرب بالقرب من مكان الكتابات الصفوية ، ويعود تاريخه إلى عام ٢٢٨ م ، وقد كتب بالحرف النبطي بلغة عدنان القديمة ، والتي كانت شائعة في أوائل القرن الرابع للميلاد ، وتعد هذه الكتابة أقدم الكتابات العربية الشمالية التي عثر عليها حتى الآن ونصه :

الشكل ٧ : نقش النمارة

ــ تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج .
ــ وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرّب مذحجو عكدي وجا .
ــ يزجى في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .
ــ الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
ــ عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولّده .

أما ترجمته العربية فهي :

ــ هذه نفس امرىء القيس بن عمر ملك العرب كلها الذي نال عقد التاج .

– وملك قبيلتي أسد (الأسدين) ونزار وملوكهم وشتت (هزم) مدججاً بالقوة (بقوته) وجاء (قاد) .
– باندفاع (بانتصار) في مشارف (إلى أسوار) نجران مدينة شمر وملك معداً ، واستعمل (وولى) بنيه على القبائل كلهم فرساناً للروم .
– الشعوب ، ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
– في القوة ، هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ كسلول ليسعد الذي ولّده .

ومن الجدير بالملاحظة في السطر الأول أن من كتب هذا النقش قد استعمل « ذو » بمعنى « الذي » وهي لغة معروفة بين بعض القبائل مثل طيّ كما استعمل كلمة « أسر » بمعنى « عصب وعقد » وهذا المعنى وارد في المعاجم العربية إضافة لعدم استخدامه الألف في كلمة التاج التي لم يكونوا قد ثبتوا استخدامها إذ ذاك . ولا نجد كلمة غريبة هنا سوى « بر » بمعنى « ابن » وهي كلمة آرامية .

وفي السطر الثاني : أضاف الواو إلى نزرو ومذحجو كما هو متعارف عليه في الكتابة النبطية التي تلحق الواو بأسماء العلم ، أما عكدي فيحتمل أن تكون عكدياً حذفت منها الألف والعكد هي القوة كما ورد في بعض المعاجم ، في حين أن الأسدين هي قبيلتي أسد .

وفي السطر الثالث : استخدم كلمة يزجى من فعل زجى بمعنى دفع أي باندفاع ، أما حبج فمعناها أشرف وقد يكون أراد بها معنى المشارف أو الحدود وشمر من ملوك حمير واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب أي ولّاهم على الشعوب .

في السطر الرابع : وكلهن بإضافة نون التوكيد إلى الفعل بعد الضمير ليصبح معنى العبارة وكله الفرس والروم .

وأخيراً في السطر الخامس وردت عبارة بلسعد ذو ولده أي ليسعد ولده (خلفه) .

وكما هو واضح فإنه يمكننا القول بأن هذا النص واضح العربية لعدم احتوائه على أية كلمة غريبة سوى بر الآرامية أولاً ، ولاعتماد الـ التعريف فيه ثانياً ، هذا علاوة عن صورة الخط نفسها التي تجسد لنا مدى تطور الخط العربي في تلك المرحلة إذا ما قيس بنقش أم الجمال الذي سبق لنا أن استعرضناه . وبالنتيجة نجد أنفسنا أمام أول نص عربي تاريخي . وقد أغنى هذا النقش مجموعة النقوش العظيمة في متحف اللوفر .

جـ — نقش زبد : اكتشف هذا النقش في خربة « زبد » الواقعة جنوب شرق حلب بين قنسرين ونهر الفرات وعلى حجر مثبت في بناء كنسي ، وقد احتوى أيضاً أسماء المحسنين الذين ساهموا في إنشائه ويعود تاريخه إلى عام ٥١١ — ٥١٢ ميلادي ، ويحوي ثلاث كتابات هي اليونانية والسريانية والخط النبطي المتأخر (أي الخط العربي القديم) .

الشكل ٨ : نقش زبد

ويلاحظ شبه كبير بين هذا الخط والخط الكوفي الإسلامي ، إذ أن جميع كلماته مقروءة عدا كلمة واحدة في السطر الأول وكلمة أو كلمتين في السطر الثاني . وقد اختلف البحاثة في استقراء هذا النص ومنهم : دوسو وإسرائيل ولفنسون وزبارسكي ، لذا فإننا سنورد المتفق عليه هنا :

ـ باسم الإله شرحوبر ... منقدو ... برمر القيس .

ـ وشرحو بر سعدو وسترو وشريحو ...

وقد يكون معنى (منقدو) هو (مع قيود) ، وبرمر القيس (ابن امرىء القيس) .

د ــ **نقش حران** : اكتشف على حجر فوق باب كنيسة في اللجا في حران شمال جبل العرب بحوران ، وقد كتب باليونانية والعربية . ويقول العلماء إن هذا النقش يعود لأمير من كندة وضعه على باب كنيسة بعد افتتاح الكنيسة التي أقيمت للقديس يوحنا المعمدان .

الشكل ٩ : نقش حران

ويلاحظ تشابه كتابته بشكل كبير مع النسخ القديم ، لقربه من العصر الإسلامي المبكر ، الذي قدر له أن يتطور حتى أمسى الخط المفضل لتدوين الدواوين والمعارف .

ويعود تاريخ هذا النقش إلى عام ٤٦٣ نبطي بحسب تقويم بصرى النبطي ، حيث أصبحت بصرى عاصمة العالم النبطي بعد أن قضى الامبراطور الروماني تريانوس على يد حاكم سورية الروماني « بالما » على مملكة الأنباط ، وألحق أراضيها بالامبراطورية الرومانية عام ١٠٦ باسم الولاية العربية . وإذا ما أضفنا الرقم ١٠٦ إلى ٤٦٣ فإن تاريخ هذا النقش يصبح ٥٦٩ ميلادي أي قبل بدء التقويم الهجري بـ ٥٣ عام ، وبالتالي فإنه يمكننا القول أنه يعود للعصر الجاهلي . ونصه :

أنا شرحبيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول
سنة ٤٦٣ بعد مفسد
خيبر
بعم .

وترجمته كما قرأها ليتمان هي :

أنا شرحبيل بن ظالم بنيت هذا المرطول
سنة ٤٦٣ بعد مفسد
خيبر
بعام .

ويعلق ليتمان على هذه الترجمة بقوله : (إن مفسد خيبر إنما أراد الإشارة إلى غزوة أحد أمراء بني غسان لخيبر) ويستدل بقول ابن قتيبة ــ ثم ملك بعده الحارث بن أبي شمر .. وكان غزا خيبر فسبى من أهلها ثم أعتقهم بعد أن قدم إلى الشام .

هـ ــ **نقش أم الجمال الثاني** : ويعتبر هذا النص من أحدث النصوص

العربية المكتشفة حتى الآن ، وقد تمكن من ترجمته « سفجت » و « وايت » وقرأه « ليتمان » على الشكل التالي .

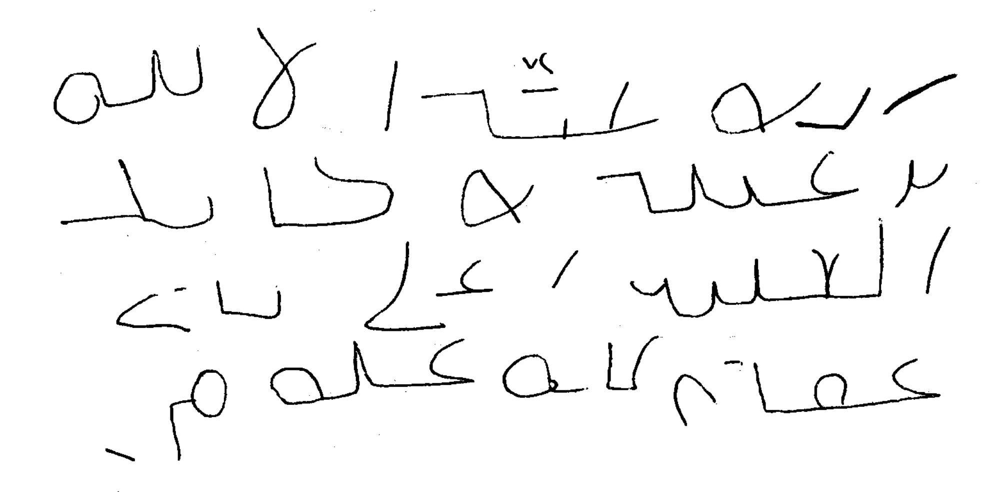
– الله غفر لأليه

– بن عبيدة كاتب

– الخليد أعلى بن

– عمري كتب عنه

– ه – يقرؤه .



الشكل ١٠ : نقش أم الجمال الثاني

وأغلب الظن أن هذا النقش يعود لنهاية القرن السادس ميلادي ، حيث أن اللغة تقترب أكثر فأكثر من العربية القرآنية ، مبتعدة في ذلك عن النبطية لغة وكتابة .

وبالتدقيق في هذه النقوش الخمس نجد أنها كلها تنحصر بين عامي ٢٥٠

للميلاد ونهاية القرن السادس الميلادي ، وتُبْرز بوضوح الشبه الكبير بين النقوش العربية والنبطية الأصلية ، وبخاصة أن أماكن اكتشافها كانت في أراض نبطية أو أراض تأثرت بهم بصورة أو بأخرى . وهذا ما دفع بالكثيرين إلى اعتبار الخط النبطي أصلاً للخط العربي .

الفصل الثالث

نشأة الخط العربي وانتشاره

كما هي الحال مع كل الفنون فإن الخط العربي قد تناولته يد الإبداع شيئاً فشيئاً منذ أن ورثنا الخط النبطي أو الخطوط التي يمكن لنا أن نعتبرها أساساً للخط العربي ، فخلال ما يقرب من خمسة عشر قرناً مرت على نقش أم الجمال الثاني ، أبدع الفكر والذوق العربي الكثير الكثير حتى وصل الخط إلى ما هو عليه الآن .

وهذه الحال تختلف عن تطور اللغة العربية ذاتها كنطق ، فلغتنا العربية كانت أصلاً لهجات تتمايز عن بعضها بعضاً بين قبيلة وأخرى بحسب مواطن سكن كل قبيلة وجيرانها ، أو بحسب الدول والممالك التي قامت ، فأداة التعريف مثلاً كانت (آن) عند اليمن الجنوبية تلحق بآخر الاسم ، وعند الصفويين والثموديين كانت (ها) وتدخل على أول الاسم ، فنقول هجمل أي الجمل ، وبمجيء الإسلام فيما بعد ، توحدت هذه اللهجات بنزول القرآن على لهجة قريش ، تلاها بعد ذلك عمل النحويين الذين فصلوا وميزوا بين قواعدها وأصولها بما لا مجال لذكره الآن .

ويميل المؤرخون إلى أن الخطوط المتداولة فجر الإسلام كانت خطوط الحيري والأنباري والمكي والمدني والكوفي والبصري . ومن المؤسف حقا أن أشكال هذه الخطوط لا نعرف عنها الشيء الكثير لافتقادنا إلى نماذج منها ،

ومع ذلك فقد وصف ابن النديم في « الفهرست » بعض ميزات وأوصاف الخطين المدني والمكي بما يدعو للاعتقاد أنهما قد يكونان خطاً واحداً بينهما اختلاف فوارق لا خصائص ، ومما قاله ابن النديم أن خط المدينة كان أنواعاً : منها المدور والمثلث والتئم ، وبالتالي فإن العرب قد عرفوا الخط المستدير قبل الإسلام ، وخطاً آخر مثلثاً فيه بعض الجفاف ، وثالثاً يجمع بين الخطين وهو خط التئم .

ويذهب بعض القدماء والمحدثين إلى أن خط الكوفة هو أصل الكتابة العربية ، ولكن جفافه برهن على خطأ هذه النظرية ، إذ أن وثيقة هامة مؤرخة بعام ٢٢ للهجرة من أحد عمال عمرو بن العاص في مصر تقطع الشك باليقين وتؤكد خطأ هذه النظرية ، فالوثيقة كانت مكتوبة بالعربية واليونانية ، والخط الذي فيها كان من النوع اللين ، وبما أن تاريخها كان بعد تأسيس الكوفة بعامين فليس من المعقول أن يولد خط لين من جاف خلال عامين فقط .

ولكن وإن احتوت الخطوط العربية اللين أو الجفاف ، فإنها كذلك لأن العرب قد ورثوا عن الأنباط خطاً جافاً مربعاً يصلح للنقش على الحجارة وتدوين أخبار الملوك وأعمالهم ، في حين أن الخطوط اللينة قد اقتصر استخدامها على المراسلات العادية والعاجلة دون إعارة أي انتباه لنوعية وشكل الخط فيها .

ومن المعقول جداً أن تكون الكوفة قد أخذت الخط اليابس ونمّقته وطوّرته فانفردت به وتميزت ، إضافة لمساهماتها في تطوير الخطوط الأخرى عموماً ، ولحسن وجمال الخط الكوفي فقد ظل خطاً معتمداً لكتابة القرآن الكريم لأربعة قرون استُبدل بعدها بخط النسخ .

الكتابة قبل الإسلام :

لم تكن الكتابة في عصر الجاهلية معروفة أو منتشرة بين العامة ، بل كانت محصورة في قلة قليلة من الناس ، كان من أشهرهم : عمرو بن زرارة وكان يسمى الكاتب ، وغيلان بن سلمة بن معتب ، جاهلي أسلم يوم الطائف ، التي خَرَّجت يوسف بن الحكم الثقفي وابنه الحجاج ، وشهرة الطائف بالكتابة وقبيلة ثقيف خاصة دعت سيدنا عمر بن الخطاب لأن يجعل كتبة المصحف من قريش وثقيف ، ودعت سيدنا عثمان بن عفان إلى أن يقول : « اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف » .

وكان لقبيلتي الأوس والخزرج نصيب من الكتبة أيضاً ، إضافة ليهودي من ماسكة علمها لبعض من الصبيان .

وعندما نزل القرآن الكريم كان في قريش عدد لا بأس به من الكتبة ، كسعيد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت (الذي كان يكتب العبرانية أيضاً) ، ورافع بن مالك ، وأسيد بن حضير ، ومعن بن عدي ، وأبو عبس بن كثير ، وأوس بن خولي ، وبشير بن سعد ، وعنهم تعلم كثيرون .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا إلى أن الكتابة قد كانت شرطاً لا بد منه ليكون العربي كاملاً وذا مكانةٍ مرموقة في قومه ، إذ كان يشترط فيه أن يكون حسن العوم والرمي والكتابة .

وتنوعت أغراض الكتابة ومواضيعها فيما بين تدوين الكتب الدينية لليهود والنصارى والأحلاف والعهود والمواثيق والصكوك والرسائل بين الأفراد .

الكتابة في زمن الرسول الكريم ﷺ :

جاء الدين الإسلامي الحنيف لينهض بالأمة العربية ديناً وأخلاقاً وحضارة ، وافتتح المولى عزَّ وجل نزول قرآنه بآياتٍ تحضّ بل تأمر المسلم بالقراءة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ، صدق الله العظيم . والواقع أنه قد ظهرت مدى أهمية الكتابة من خلال ارتباطها بنسخ القرآن الكريم وتدوين آياته ، فانتشر الخط بانتشار الإسلام .

ونظراً لارتباط الدين الإسلامي باللغة والكتابة العربية ، كما في قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ فقد حمل خصائص العرب لكل مكان وصلوا إليه ، كما يقول أرنست كونل في مقدمة كتابه « فن الخط العربي » : « لقد منح العرب الدين الإسلامي اللغة والخط ، وانتشر الخط العربي في العالم الإسلامي فأصبح رابطة لجميع الشعوب الإسلامية ، رغم الحدود الحاضرة » .

وكان الرسول الكريم قد اتخذ عدداً من الصحابة كتّاباً للوحي وللرسائل التي أرسلها إلى الملوك والأمراء ، وبخاصة تلك الرسائل التي كان يدعوهم فيها للإسلام ، وكان هؤلاء الكتاب يكتبون بالخط المقور وعددهم ثلاثة وأربعون أشهرهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو سفيان وولداه معاوية ويزيد ، وسعيد بن العاص وولداه أبان وخالد ، وزيد بن ثابت والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وعامر بن فهيرة وعبد الله ابن الأرقم ، وعبد الله بن رواحة وعبد الله بن أبي سرح وأبي بن كعب وثابت بن قيس وحنظلة بن الربيع وشرحبيل بن حسنة والعلاء الحضرمي وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي وحذيفة بن اليمان وحويطب بن عبد العزّى العامري . على أن ألزمهم

للنبي ﷺ وأكثرهم كتابة له كان زيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان . وقد كتب زيد بن ثابت صحف القرآن بالخط المقوَّر في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبأمره وبإشارةٍ من سيدنا عمر بن الخطاب ، بعد مقتل بعض حفظة القرآن في اليمامة ، وكتب معه عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المصاحف الأربعة الأولى التي أرسل سيدنا عثمان بن عفان فيما بعد ثلاثة منها إلى البصرة والكوفة والشام واحتفظ بواحدة .

وكما روى ابن الأثير في كتابه « أُسْد الغابة » فإن رسول الله قد بدأ إقامته بالمدينة ببناء مسجد جعله للتعليم ، وكلف عبد الله بن سعيد بن العاص وعبادة بن الصامت بتعليم الكتابة ، وأوفد معاذ بن جبل إلى عماله الواحد تلو الآخر لتعليم الكتابة في عمالتهم .

أما الكتب التي أرسلها الرسول الكريم بالخط المقور فهي :

١ ـ كتابه لهرقل قيصر الروم ، وقد أرسله مع دحية الكلبي .

٢ ـ كتابه لأبرويز كسرى فارس ، وقد أرسله مع عبد الله بن حذافة السهمي .

٣ ـ كتابه لأسحمة نجاشي الحبشة ، وقد أرسله مع عمرو بن أمية الضمري .

٤ ـ كتابه لمينا بن جريج مقوقس مصر ، وقد أرسله مع حاطب بن أبي بلتعة .

٥ ـ كتابه للمنذر بن ساوى أمير البحرين ، وقد أرسله مع العلاء بن الحضرمي .

٦ ـ كتابه لجيفر وعبد ملكي عمان ، وقد أرسله مع عمرو بن العاص .

٧ ـ كتابه لهوذة بن علي صاحب اليمامة ، وقد أرسله مع سابط بن عمرو العامري .

٨ ــ كتابه للحارث بن شمر الغساني ملك البلقاء ، وقد أرسله مع شجاع ابن وهب .

٩ ــ كتابه ليوحنا بن رؤبة صاحب أيلة وسلمه له في تبوك .

ونرى في الشكل التالي **صورة لنص كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر ابن ساوى والذي عثر عليه في دمشق :**

الشكل ١١

ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى
المنذر بن ساوى ، سلام عليك فإني أحمد الله
إليك الذي لا إله غيره ، وأشهد أن لا إله إلا
الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإني أذكر
ك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع ر

سلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي
وأن رسلي قد أثنوا عليك خيراً لله وإني قد شفعتك في
قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل
الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن
أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليك الجزية
محمد رسول الله

انتشار الخط العربي في العالم :

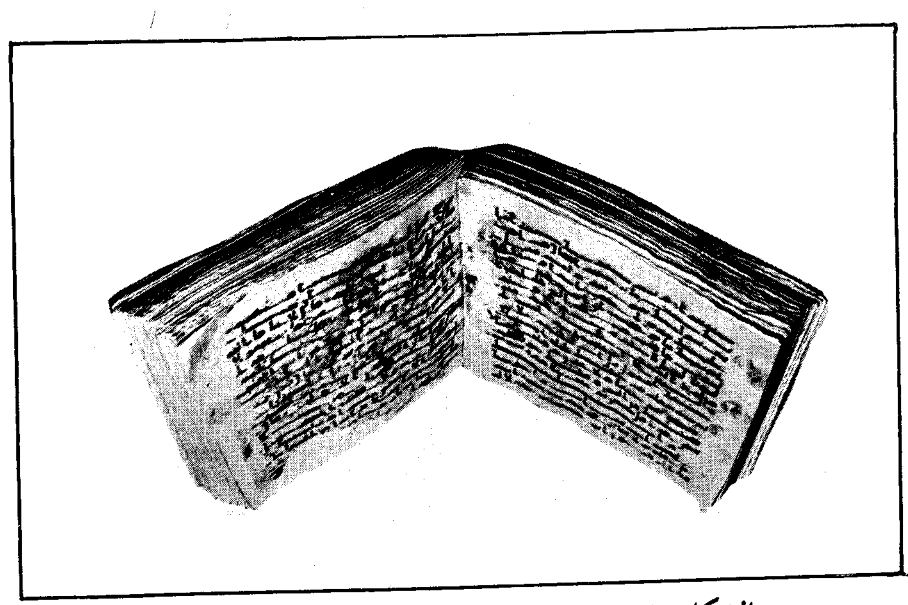
مع انتشار الإسلام والمسلمين في شتى أصقاع الأرض كفاتحين قدوة في كرم أخلاقهم وحسن معشرهم فقد أمكنهم أن يصهروا الشعوب التي فتحوا بلادها في بوتقة القالب العربي الديني والثقافي والعلمي .

فمع هجرة الرسول الكريم من مكة إلى المدينة المنورة بدأت رحلة العرب مع الكتابة والخط ، حتى انتشرت الكتابة في أرجاء الجزيرة العربية بحكم انتشار الإسلام فيها أولاً ، واقتصر انتشار القراءة والكتابة على قلة قليلة نسبياً ومع ذلك فقد كانت قفزة نوعية لا يمكننا تجاهلها .

وكانت آيات الله المنزلة على نبيه الكريم تُدَوَّن على مواد كتابة مختلفة كالرّق والقحاف واللخاف والعسب ، أو أنها كانت تحفظ في صدور الصحابة ، إلى أن دعا سيدنا عمر رضي الله عنه كما سبق وأن ذكرنا إلى جمعه بعد موقعة اليمامة ليصار إلى استنساخه في عهد سيدنا عثمان ، وسمي هذا المصحف بالمصحف العثماني ، أو المصحف الإمام ، وأتلفت آنئذٍ كل المصاحف الأخرى سواه عدا مصحف السيدة حفصة زوج الرسول وابنة عمر ، ونسخت عن المصحف العثماني عدة نسخ ثم إرسالها وتوزيعها على بعض أقطار الدولة كالشام والكوفه.

ونرى في الشكل التالي صورة لإحدى النسخ والمحفوظة في متحف طوباقي باستنبول . وأخرى في طشقند .

ومع اقتباس نظام الدواوين على يد سيدنا عمر بن الخطاب عن نظام الدواوين الفارسي ، فقد أمسى لكل خليفة كتّابه الثقات ، فبدأ ينتشر القلم العربي خارج شبه الجزيرة العربية ، مع ابتداء عهد الفتوحات في عهد سيدنا عمر بكتابة هي أقرب للنبطية في كثيرٍ من صور الكلمات ، كما يلوح لنا من النظر للمصحف الذي دوِّن زمن خلافة سيدنا عثمان بن عفان ، وبدأت حركات التفنن والتنميق في الكوفة زمن خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، في حين أن أول ظهور للأقلام البعيدة عن مبادىء الخط الكوفي كان زمن خلافة بني أمية في الشام .



الشكل ١٢ : نسخة مصحف سيدنا عثمان المحفوظة
في متحف طوب آبي باستنبول

★ اختلف المعربون في تسمية هذا المتحف من طوباقي لطوب آبي أو طوب كابي .



الشكل ١٣ : نسخة المصحف التي يعتقد أنها تعود للخليفة عثمان رضي الله عنه في المكتبة الرئيسية للإدارة الدينية في مدينة طشقند في كازاخستان

ونرى في الشكل التالي صورة صفحة للقرآن الكريم منسوبة لقلم سيدنا علي بن أبي طالب .

الشكل ١٤ : الخط العربي القديم في المصحف المنسوب لقلم الإمام علي بن أبي طالب

وبفتح المسلمين لأصقاع شتى من الأرض بدأت تنتشر اللغة العربية انتشار الإسلام نفسه ، لكونها لغة القرآن الكريم ، فبدأت الأمم استعارة الأحرف العربية أمة تلو الأخرى ، ففي فارس حلّت محل الحروف الفهلوية ، واعتمدها الأفغانيون لكتابة لهجاتهم البامبرية ، والبلوجستانيون الذين اعتمدوا اللغة العربية وكتابتها في كتابة المسائل والمباحث الدينية ، وفي الهند حلت محل اللغة الأوردية الهندوستانية ولغة أهل الكشمير ، واعتمدها مسلمو أرخبيل الملايو لكتابة لغتهم الملقية ، ووصلت حتى مسلمي الصين الذين أبقوا على لغتهم الصينية في أمورهم غير الدينية .

كما عرفت الحروف العربية في لغات التتار والترك المقيمين حول بحر قزوين وشمال البحر الأسود وجنوبي جبال أورال حتى وصلت إلى إقليم سيبيريا ، وهذا كله رافقه زيادات وإضافات على الأحرف يمكنها استيعاب ألفاظ وأصوات ليست أصلاً في اللغة العربية .

وحول انتشار الخط العربي في أفريقيا ، فقد ابتدأ مع الفتح الإسلامي لمصر في عهد الخليفة عمر ، فكتب به رسائل الخلفاء والولاة وردودها والمصاحف والكتب الدينية ، حتى استخدمها الأقباط في تدوين الإنجيل ، وقد تبوأت مدغشقر أولوية كبيرة في رواج الخط العربي بسبب انتشار الإسلام فيها بوقت مبكر لكثرة وفود العرب إليها بقصد التجارة ، في حين أن انتشار الخط العربي في الحبشة كان تحت تأثير هجرة المسلمين إليها فراراً من إيذاء الكفار ، وإلى الآن ما زال يكتب مسلمو الحبشة لهجاتهم بالأحرف العربية ولا سيما اللغة الأمهرية المنتشرة في الجنوب واللهجة الهررية وهي إحدى لهجات الأحباش الشرقية .

أما في الأندلس فقد انتشر الخط العربي هناك حتى جنوب فرنسا ، وثبت

اتخذها الإسبان والصقليون وكثير من أمم أوروبا للزخرفة المعمارية والعملة ، ونرى في الشكل التالي صورة كتابة عربية على ثوب الملك روجرز الثاني ملك صقلية والمحفوظة في متحف « فيينا » .



الشكل ١٥ : كتابة عربية على ثوب الملك روجرز الثاني ملك صقيلية

الفصل الرابع

تطور الخط العربي واكتماله

خلصنا في الفصل الثالث إلى أن نشوء الخط العربي واستقلاليته قد بدأت قبيل الدعوة الإسلامية وإلى أن هذه الدعوة السمحاء قد أرست وجوده وانتشاره بفضل جهود وحكمة النبي الأمي عليه صلوات الله وسلامه ، وسنستعرض في هذا الفصل دور أهم العصور والدويلات العربية التي ساهمت في تطويره .

تطور الخط العربي في العصر الأموي :

دخل الخط العربي في العهد الأموي رحلة التطور والارتقاء في خط موازٍ لنهوض الدولة في مضمار الحياة الفنية والزخرفية والمعمارية ، فبدأ يتحرر من جمود وبدائية أشكاله ، وتميزت تلك الفترة بـ :

١ ــ إدخال الشكل : بوضع الحركات الأربعة لمنع اللحن .
٢ ــ الإعجام : بدخول التنقيط لمنع التصحيف .
٣ ــ ظهور أنواع جديدة من الورق .

٤ ــ تقريب الخطاطين من الخلفاء والولاة وانفراد المبدعين منهم بالحظوة .

١ ــ إدخال الشكل : كان السواد الأعظم من العرب عند ظهور الإسلام أميين لا يعرفون القراءة والكتابة ، أما القلة التي تعرفها فقد كانت تمتلك سليقة

لغوية أغنتها عن الضرورة للحركات في حسن وصواب القراءة ، وبظهور الإسلام وإعلاء كلمة الله على أقطار عربية وأخرى أعجمية بدأ اللحن ينتشر بين العامة في قراءة القرآن خاصة ، ويروى أن أعرابياً سمع إماماً يقرأ الآية ٢٢١ من سورة البقرة ﴿ ولا تُنْكِحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ على الشكل « ولا تَنْكَحوا المشركين حتى يؤمنوا » أي بفتح التاء بدلاً من ضمها ، فطلب زياد وكان والياً على البصرة من أبي الأسود الدؤلي أن يضع طريقة تخلص الخط من هذه المعضلة الخطيرة قائلاً له : « إن هذه الحمراء قد أكثرت وأفسدت من ألسنة العرب ، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله » فاختار أبو الأسود كاتباً من عبد القيس وقال له : خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد ، فإن رأيتني فتحت شفتيَّ بالحرف فانقط واحدة فوقه وإن كسرتهما فانقط واحدة أسفله وإن ضممتهما فاجعل النقطة بين يدي الحرف ، فإن تبعت شيئاً من هذه الحركات غنةً فانقط نقطتين ، وظل الحال هكذا إلى أن أتمَّ المصحف كاملاً ، واتبع الناس فيما بعد طريقة أبي الأسود هذه في المصاحف فقط دون الكتب العادية ، مخافة اللحن في كلام المولى عزّ وجل ، أما في الكتب العادية فقد وصل الرأي ببعضهم أن قال : « شكل الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه » إضافة لاستهجان بعضهم فنظر الشكل ، فقد عرض مرةً على عبد الله بن طاهر كتاب مشكول وكان خطه جميلاً فقال : « ما أحسن هذا الخط لولا كثرة شونيزه » والشونيزة الحبة السوداء .

٢ ـ **الإعجام** : ويراد بالإعجام نقط الأحرف المتشابهة رسماً لتمييزها عن بعضها بعضاً ، ويعتقد الكثيرون أن الإعجام قد عُرِفَ قبل زمن عبد الملك ابن مروان ، فبعض المؤرخين يقولون أن الإعجام كان قبل كتابة المصحف

الإمام ، كما ورد في بعض الأحرف المنقوطة لبردية أحد عمال عمرو بن العاص في مصر ، المؤرخة عام ٢٢ هجرية . وقد جُرِّدَ منه المصحف قصداً ، حتى إذا اتسعت رقعة الدولة وكثر المسلمون من غير العرب وبدأ التصحيف في العراق نادى الحجاج بن يوسف الثقفي كاتبيه نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وسألهما إيجاد طريقة تميز حرفاً عن آخر شبيه ، وكان الاثنان من تلامذة أبي الأسود ، فاعتمدا نقط الأحرف بنفس لون المداد الذي تكتب به الأحرف لكون النقطة جزءاً من أصل الحرف وليست إضافة .

وبعد موافقة الحجاج على طريقتهما أمر كتّابه في الإمارة بنسخ المصحف وشكله بمداد أحمر وإعجامه بنفس المداد ، وبعد ذلك أبلغ الخليفة عبد الملك ابن مروان فاستحسن عمله وحمل الناس عليه حتى عمّت طريقته المصاحف والكتب جميعاً .

ومما يروى في ضرورة الإعجام أن سيدنا الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد كتب يوماً إلى أهل مصر في تولية رجل عليهم وقال : « إذا جاءكم فاقبلوه » فقرأها الناس « إذا جاءكم فاقتلوه » فكانت سبباً لفتنة أودت بحياته ، وأيضاً أن سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامل له في المدينة : أن أحص المخنثين ، فقرأها الكاتب « اخص المخنثين » ، فخصي تسعة منهم ، أما في باب قراءة القرآن الكريم فإن إعرابياً سمع إماماً يقرأ الآية ٥٦ من سورة الأعراف ﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ﴾ هكذا « أصيب به من أساء » .

٣ ـ **ظهور أنواع جديدة من ورق الكتابة** : يعتبر الصينيون أول من صنع الورق وكان التجار العرب يستوردونه من هناك لقضاء حاجات البلاد منه . ولكن أول من صنع الورق في العالم الإسلامي كانت « سمرقند » التي فتحها العرب عام ٨٧ هـ . وقد نافس ورقها قراطيس مصر والجلود التي كان يكتب

عليها الأوائل لأنها أنعم وأحسن وأرق .

٤ ـ **ظهور خطاطين كبار** : اعتلى سدة رئاسة الخط العربي في العهد الأموي الخطاط البارع « قطبة المحرر » الذي ابتكر أولاً الخط الجليل ، وكان خطاً ضخم الرسم واضحاً ، اعْتُمِدَ لكتابة واجهات المباني ، أُتبعه بخط أصغر منه هو خط الطومار ، فمختصر الطومار،فالمحقق (الذي سمي بجلي الثلث) ، فخط الأشعار،فالأشربة،فالسميعي ؛ والذي أدى إلى خط المدوّر والخط النرجسي،وفي عام ١٣٦ هـ تقريباً ابتكر قطبة خطي الثلث والثلثين .

وقد سمي الخط الجليل بالخط الجلي لكونه أكبر الأقلام وأوضحها ، أما الطومار فقد جاء اسمه من الطومار وهي الورقة الكبيرة التي عرضها ذراع واحد . وكان هذا القلم لتوقيع الخلفاء على التقاليد والمكاتبات إلى السلاطين والعظماء ، في حين أن مختصر الطومار قد كان لكتابة اعتماد الوزراء والنواب على المراسيم ولكتابة السجلات الهامة ، واعتمد الخط المدور لكتابة الدفاتر ونقل الحديث والشعر .

ومن الثلث تم اشتقاق خط خفيف الثلث (وهو خط الرقاع أو التوقيع) ، وخط ثقيل الثلث الذي أدى بدوره إلى خطوط المفتح والزنبوري والحرم ، ومن الأخير اشتق خط العهود ، أما خط الثلثين والذي خُصِّصَ لتدوين السجلات فقد أدى لنشوء خط المؤامرات وهذا إلى الخط المنثور فالديباج فالخرفاج .

ونرى في الشكلين التاليين نموذجين لخطي الطومار على طريقة ابن البواب العباسي ولمختصر الطومار .



الشكل ١٦ ــ أ : قلم الطومار بخط ابن البواب

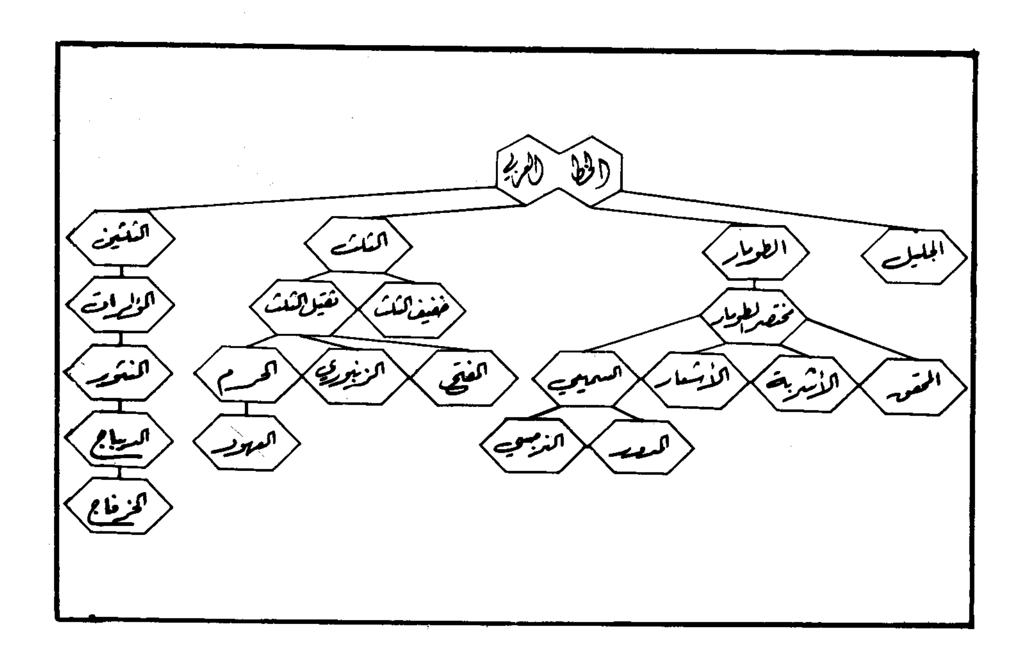


الشكل ١٦ ـــ ب : قلم الطومار مكرراً بخط المؤلف

الشكل ١٧ : قلم مختصر الطومار

ومن الخطاطين المتميزين في العهد الأموي اشتهر في عهد الخليفة الوليد ابن عبد الملك « خالد بن الهياج » الذي اشتهر بكتابة المصاحف ، والذي كتب بالذهب على محراب مسجد الرسول الأعظم في المدينة المنورة سورة الشمس ، واشتهر بعده « مالك بن دينار » فـ « الرشيد البصري » و « مهدي الكوفي » .

وعلى ما سبق فإنه يمكننا جمع اشتقاقات الخطوط العربية في العهد الأموي والتي بدأ بوضعها « قطبة المحرر » على الشكل .



تطور الخط العربي في العصر العباسي :

لعب خلفاء بني العباس دوراً متميزاً في تاريخ نهوض الحضارة الإسلامية وفي كل المجالات . وبلغت الحضارة الإسلامية أعلى قمم لها في عهدهم الذي

نبغ فيه فطاحل من العلماء في شتى المجالات ، ويعكس لنا الجاحظ في كتابه المحاسن والأضداد نظرة ذلك العصر للكتابة والكتب : « وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان ، لأن البناء لا محالة يدرس ، وتعفى رسومه ، والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن ، ومن أمةٍ إلى أمة ، فهو أبداً جديد ، والناظر فيه مستفيد ، وهو أبلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير ، وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور ، ونقشاً في الحجارة ... يعمدون إلى المواضع المشهورة والأماكن المذكورة ، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من الدروس ، وأجدر أن يراه من مرَّ به ، ولا ينسى على وجه الدهور ، ولولا الحكم المحفوظة والكتب المدونة ، لبطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر » .

ويُعَدُّ حل مشكلة الشكل بمداد مخالف للون مداد الكتابة أهم تطوير للكتابة في العهد العباسي ، فقد اهتم الخليل بن أحمد الفراهيدي بهذه المعضلة ، ووصل إلى أن أفضل طريقة هي : وضع ألف صغيرة فوق الحرف لتدل على الفتحة ، وياء صغيرة تحته مكان الكسرة ، وواواً صغيرة فوقه بدل الضمة ، والتنوين بتكرار الحرف صغيراً ، وللسكون الشديد رأس السين ، وللسكون الخفيف رأس الحاء ، واستبدل الهمزة برأس العين لاقترابهما في مخرجهما من الفم ، ولألف الوصل رأس الصاد وللمدّ الواجب ميماً صغيرة مع جزءٍ من الدال (مد) ، وبذلك أمكن للكتّاب الجمع بين الحرف وشكله وتنقيطه بمداد واحد .

وكان أول البارزين في ميدان الخط العربي في العهد العباسي خطاطَين من أهل الشام ، هما الضحاك بن عجلان الذي عاصر السفاح أول خلفاء بني العباس ، وإسحاق بن حمّاد في خلافة المنصور والمهدي ، وأخذ عن

إسحاق بن حماد إبراهيم السجزي* خط الجليل ، وابتكر منه خطاً أخف منه هو خط الثلثين ، ثم ابتكر من الثلثين الثلث ، أما يوسف أخو إبراهيم السجزي فقد أخذ الخط الجليل عن إسحاق أيضاً ، وابتكر منه خطاً أُعْجِبَ به الفضل ابن سهل وزير المأمون ، وأمر أن تحرر الكتب السلطانية به ، وأسماه القلم الرياسي ، الذي قال عنه آخرون أنه قلم التوقيعات ، وإضافة لإبراهيم ويوسف فإن خطاطين كُثُر خرجهم إسحاق بن حماد ، وكان من أبرزهم : لقـوة الشاعر ، وأحمد الكلبي (كاتب المأمون) ، وعبد الله بن شداد ، وصالح ابن عبد الملك ، وسليم (خادم جعفر بن يحيى) ، وثناء (جارية ابن قيوما) ، وإبراهيم بن الحسن ، وعبد الجبار الروسي ، وعثمان بن زياد ، ومحمد بن عبد الله المدني ، وعمرو بن مسعدة ، وأحمد بن أبي خالد .

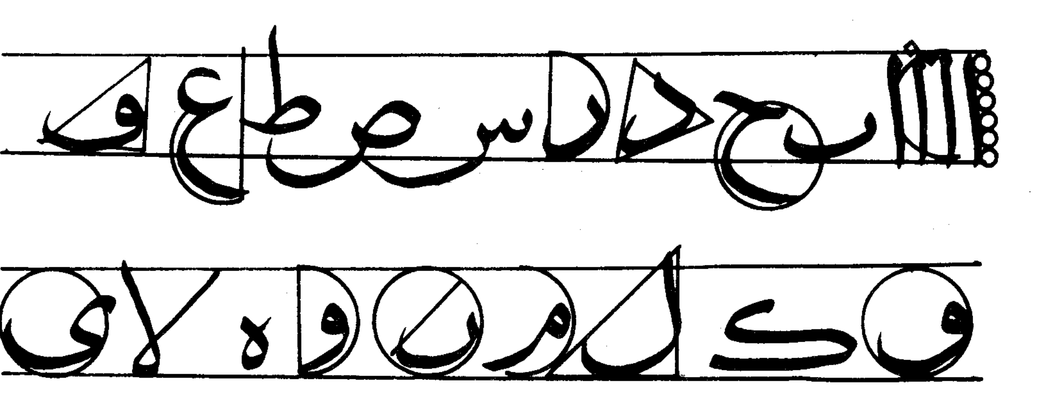
بعد ذلك برز الأحول المحرر تلميذ إبراهيم السجزي وأستاذ الوزير أبو علي بن مقلة ، فقد أخذ الأحول عن إبراهيم خطي الثلثين والثلث وابتكر منهما قلماً سماه قلم النصف ، وآخر أخف من الثلث سماه خفيف الثلث ، وقلماً متصل الحروف سماه المسلسل ، إضافة لخطوط أخرى هي غبار الحلبة (الخاص بالحمام الزاجل) والمؤامرات والقصص والحوائجي ، ومما يلفت النظر هنا أنه برغم بهجة وحسن خطه فقد تفوق عليه آخرون لافتقار خطه للتناسق والإحكام ، وممن نافسه أو تفوق عليه كان وجه النعجة في الخط الجليل ، ومحمد بن معدان المعروف بأبي درجان بخط النصف ، وأحمد بن محمد حفص المعروف بزاقف في خط الثلث .

ومع ذلك فإنه يكفي الأحول المحرر فخراً أنه خرَّج واحداً من عمالقة الخط العربي عبر التاريخ هو الوزير أبو علي محمد بن مقلة وزير المقتدر بالله

---

* بعض الكتب تورد أنه الشجري أو السنجري أو .

والقاهر بالله والراضي بالله ، والذي تابع ما بدأه الأحول من تطوير وتنميق للخط العربي . وبجانبه أخيه أبي عبد الله الذي أجاد خط النسخ وقد قال عنهما صاحب « إعانة المنشيء » : « وولدا طريقة اخترعاها ، وكتب في زمانهما جماعة فلم يقاربوهما » ، وكان أحسن ما أتى به ابن مقلة هو هندسة الحروف ووضع موازين لها أمكنه معها إجادة التحرير والقوة والتمكن من القلم العربي ليأخذ عن نهجه الكثيرون من بعده ولينتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها . فقد أقرَّ مبدأً لضبط حروف الهجاء كأساس هندسي لرسم الحروف ا ، ب ، جـ ، د بعضها لبعض بقدر مساحة حرف الألف الذي اعتبر قطراً لأي دائرة بأي قلم كان ، وشرح طرق رسم الحروف قاطبة مبتدئاً بالألف قائلاً فيها : « وهي شكل مركب في خط منتصب ، يجب أن يكون مستقيماً غير مائل إلى استلقاء ولا انكباب ، وليست مناسبة لحرف في طول ولا قصر » . ونرى في الشكل التالي رسماً توضيحياً لهذه القاعدة منقولاً عن بدائع الخط العربي .



الشكل ١٨ : أساس هندسة الحروف بخط المؤلف كما شرحها ناجي زين الدين

وسمي خطه هذا بالخط المنسوب لاعتماده النقطة التي يخطها القلم كوحدة للقياس التي علينا العمل على أساسها ، كما وضع خطاً آخر أسماه خط الدرج، وكان أول من أجاد خط الثلث .

وعن ابن مقلة أخذ محمد بن السمسماني ومحمد بن أسد ، وعنهما أخذ العملاق الثاني في تاريخ الخط العربي وهو علي بن هلال المعروف بابن البواب ، وقد طور ابن أسد قلم التوقيعات وقلم النسخ ووضع خط الذهب .

أما عن ابن البواب فقد أكمل قواعد الخط وتممها واخترع غالب الأقلام التي أسسها ابن مقلة ، وقد ألف رسالة في الخط لم يبق منها سوى مقدمتها ، وتوفي في بغداد عام ٤١٣ هـ ودفن بجوار الإمام أحمد بن حنبل كما ورد في وفيات الأعيان لابن خلكان ، ويحكى عنه أنه كتب أربعة وستين مصحفاً مباركاً في سني حياته وأورث الأدب العربي قصيدته الرائية الشهيرة في إجادة الخط والتحرير . وقد رثاه بعضهم بقوله :

واستَشْعَرَ الكُتَّابُ فقدك سالفاً ... فَجَـرَتْ بصمـة ذلك الأيـام
فلذاك سودت الدوى* وجوهها ... أسفـاً علـيكَ وشُقَّتْ الأقـلام

وأخذ عن ابن البواب محمد بن عبد الملك ، وعن محمد بن عبد الملك أخذت الشيخة المحدِّثة الكاتبة زينب الملقبة بشهدة ابنة الأبري (تحكي بعض المراجع أنها شهدة بنت أحمد الأبـري الدينـوري المتوفـاة في بغـداد عـام ٥٧٤ هـ) ، وعنها أخذ أمين الدين ياقوت ، وعنه أخذ الولي العجمي (ولي الدين علي بن زنكي) ، وعليه كتب العفيف ، وعن العفيف أخذ ولده الشيخ عماد الدين الذي شُبِّه بابن البواب في زمانه ، وعن الشيخ عماد الدين بن

---

* الدوى : جمع دواة .

العفيف أخذ الشيخ شمس الدين بن أبي رقيبة محتسب الفسطاط وأخذ عنه الشيخ شمس الدين محمد بن عليّ الزفتاوي الذي وضع مختصراً في قلم الثلث مع قواعد ضمها إليه في صنعة الكتابة ، وعنه أخذ أبو العباس القلقشندي صاحب صبح الأعشى والشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الأثاري محتسب مصر ، ونظم في صفة الخط ألفية أسماها ، « العناية الربانية في الطريقة الشعبانية » توجه بعدها إلى مكة فاليمن والهند ثم عاد إلى مكة فأقام بها ونبغ .

وأخيراً دخل الخط العربي مرحلة هامة من مراحل الإبداع والتطور في نهاية العصر العباسي بظهور ياقوت الرومي الحموي البغدادي المتوفى سنة ٦٢١ هـ ، وبعد ذلك العملاق الثالث في تاريخ الخط العربي الشيخ جمال الدين ياقوت المستعصمي البغدادي بن عبد الله ، الذي أتم ما بدأه ابن مقلة وابن البواب وعُرِف بقبلة الخطاطين ، وقد توفي عام ٦٩٨ هـ في بغداد بعد أن ترك آثاراً خالدة تشهد على براعته وتفوقه ، وبموته أَفَلَ نجم لامع من نجوم الحضارة الإسلامية في الخط والأدب والشعر .

وبعد ياقوت المستعصمي برز ستة خطاطين أخذوا على نهجه وتمايزوا عن بعضهم بعضاً ، فقد برز عبد الله الصيرفي بخط النسخ ، وعبد الله أرغون بخط المحقق ، ويحيى الصوفي بخط الثلث ، ومبارك شاه قطب بخط التواقيع ، ومبارك شاه السيوقي بالخط الريحاني وأحمد السهرودي طيب شاه بخط الرقاع .

الدويلات العربية والخط العربي في العصر العباسي :

ساهمت الدولة الفاطمية في مصر بتجويد الخط العربي مساهمة كبيرة ، وكانت أشهر مدنها في مضمار الخط العربي مدينة الفسطاط التي بقيت مدارس الخط فيها عامرةً حتى العصر المملوكي .

وفي شمال الشام ومنذ أواخر القرن الخامس الهجري حظي الخط العربي بنصيب وافر من التجويد بتحوله من صوره السابقة إلى صورتين جديدتين ، إحداهما خط النسخ والثاني خط الطومار ومشتقاته ، ومنذ ذلك التاريخ سادت الخطوط اللينة وبدأ الخط الكوفي بالانحسار في كتابة المصاحف لتحل محله هذه الخطوط اللينة .

وفي العصر الأيوبي في مصر والشام بدأت الخطوط المستديرة تحل محل الخطوط الكوفية على الأبنية والأحجار حتى إذا ما حل القرن السابع قل شأن الخطوط الكوفية وتراجعت كثيراً وبدأت تقتصر على اللوحات المعلقة الجدارية كقطع تزيينية بلغت درجات عالية من الجمال والذوق .

واستوعبت المدرسة المصرية المملوكية جميع تراث السلف على نحو واسع وجددت الخطوط المشتقة من خط الطومار الكبير (الثلث والثلثين) .

وأخيراً نجد المدرسة السلجوقية الأتابكية التي قام إنتاجها فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر الهجريين والتي جودت خط النسخ بحيث أتت المصاحف السلجوقية غاية في الروعة والجمال .

ومن ذلك كله نستنتج أن دور المدرسة العباسية البغدادية التي جاد فيها الضحاك وابن حماد والأحول وابن مقلة وابن البواب وياقوت ومن قبلها الشامية التي نبغ فيها قطبة المحرر قد كانت مقررة لقواعد الخط أكثر منها مجودة ومتفننة ، وجاء دور خلفهم ليظهروا براعتهم ومقدرتهم على حسن تصوير هذه القواعد ولتَبْرُزَ معالم هذا الفن العريق في أبهى حلة .

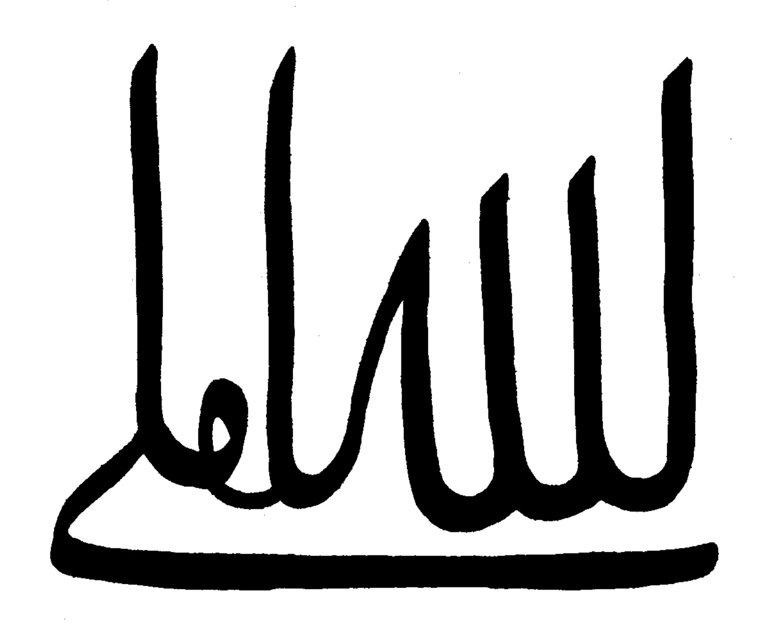
وسنستعرض فيما يلي أهم هذه الخطوط ومميزاتها .

١ ــ قلم الطومار

إن المراد من كلمة الطومار في الأصل هو مقياس من مقاييس الورق يلائمه قلم مساحة عرضه ٢٤ شعرة من شعر البرذون ، والبرذون هذا حيوان قريب من الحصان ، وقد لخص السرمري في أرجوزته خواص هذا الخط فقال :

١ ــ أن مستداراته كلها بوجه القلم ، والمدات بسنه ، والتعاريق بوجهه منفتلاً إلى اليمين .
٢ ــ أن الميم منه تكون مفتوحة مدورة ، والفاء والقاف فيه أوساطها محددة وجنباتها مدورة .
٣ ــ أن يكون البياض بين الأحرف كمثله بين السطور .
٤ ــ أن يكون الفضل من جانبي القرطاس متساوياً في المقدار .
٥ ــ ألا يكون فيه صاد مدورة ولا كاف مشكولة .

كما ذكر المولى زين الدين شعبان الأثاري في ألفيته : أنه يدخل فيه الترويس في الألف ، والباء والجيم والدال والراء والطاء والكاف المجموعة واللام والنون في الإفراد والتركيب عند الابتداء ، وأنه لا يجوز الطمس في شيء من عقده كالصاد والطاء والفاء والقاف والهاء والواو واللام ألف المحققة بحال ، والمعنى فيه أن الطمس لا يليق بالخط الجليل ، ونرى في الشكل التالي صورة من كتابة العلامة علي المناشير « الله أملي » بياء راجعة :



الشكل ١٩ : « الله أملي » بقلم العلامة علي المناشير

٢ ــ قلم مختصر الطومار

وتبلغ مساحة عرضه ما بين ١٦ ــ ٢٤ شعرة من شعر البرذون دون أن يكون ١٦ لأنه إذ ذاك يكون قلم ثلثين ودون أن يكون ٢٤ لأنه يكون طوماراً .

وتجوز الكتابة به على طريقة الثلث في ميل حروفه إلى التقوير وطريقة المحقق في ميل حروفه إلى البسط ، كما ينطبق عليه بالنسبة للترويس والطمس ما انطبق على الطومار لقرابته منه في الجلالة وسعة مساحة العرض . ونرى في الشكل التالي نموذجاً لخط مختصر الطومار .



الشكل ٢٠ : قلم مختصر الطومار

٣ ـ قلم الثلث

وتبلغ مساحة عرضه ثمانية شعرات ، قطته محرّفة لامتيازه بحركات لا يمكن رسمها إلا بحرف القلم ، يميل للتقوير أكثر منه للبسط . وقد ذكر المولى زين الدين شعبان في ألفيته : أنه يُرَوَّس فيه من الحروف الألف المقررة ، الجيم والحاء والخاء ، الطاء ، الكاف المجموعة ، اللام المفردة ، وعُقَدُه من الصاد والطاء والعين وأخواتهما والفاء والقاف والميم والهاء والواو واللام ألف كلها مفتحة لا يجوز طمسها بحال من الأحوال . وهو على نوعين ، ثقيل وخفيف ، فالثقيل يكتب بثمانِ شعرات والخفيف دون ذلك بقليل ، ويقول الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ في الفرق بين ثقيل الثلث وخفيفه : « والفرق بينه وبين الثلث الثقيل أن الثقيل تكون منتصباته قدر سبع نقط على ما في قلمه ، على ما تقدم ، والثلث الخفيف يكون مقدار ذلك منه خمس فقط ، فإن نقص عن ذلك قليلاً ، سمي القلم اللؤلؤي » .

وندرج فيما يلي صوراً لأحرف ثقيل الثلث بخط المؤلف على شاكلة ما أوردها القلقشندي في صبح الأعشى ، ويلي ذلك بعض من أبجدية وموازين

في الثلث على ما وصلت إليه من تنميق وتطوير وتهذيب في عصرنا الحاضر إضافة لبعض من نفائس المخطوطات .

الشكل ٢١ : أبجدية خط الثلث القديمة بقلم المؤلف

مركبة مقورة — مركبة مقطوعة — مركبة مدغمة — محققة مظهرة

مجموعة — مفردة موقوفة — مفردة مبسوطة — متوسطة بينية قائمة — ملوزة

مركبة د — مردوفة ومشكولة — مربعة مفتوحة — معلقة مطموسة — مفردة مجموعة

مجموعة — موقوفة — مبسوطة — متوسطة

قاف مفردة مبسوطة — مفردة مبسوطة — مبتدأة مبسوطة

متوسطة مبسوطة — مبتدأة مشكولة — متوسطة مشكولة

كاف مدراة — لام مجموعة — مطلقة — مبتدأة محققة

مبتدأة معلقة — مبتدأة محققة — محققة مختتمة — معلقة مبتدأة

معلقة مختمة — معلقة مبتدأة — مفردة مسبلة — مركبة — مبسوطة

معقولة — مفردة مجموعة — مفردة مقورة — مفردة مبسوطة

مدغمة مع الميم — مدغمة مع العين — معراة — مركبة — مقورة

مقورة مقدرة — وجه الهر — وجه الهر مترسلة

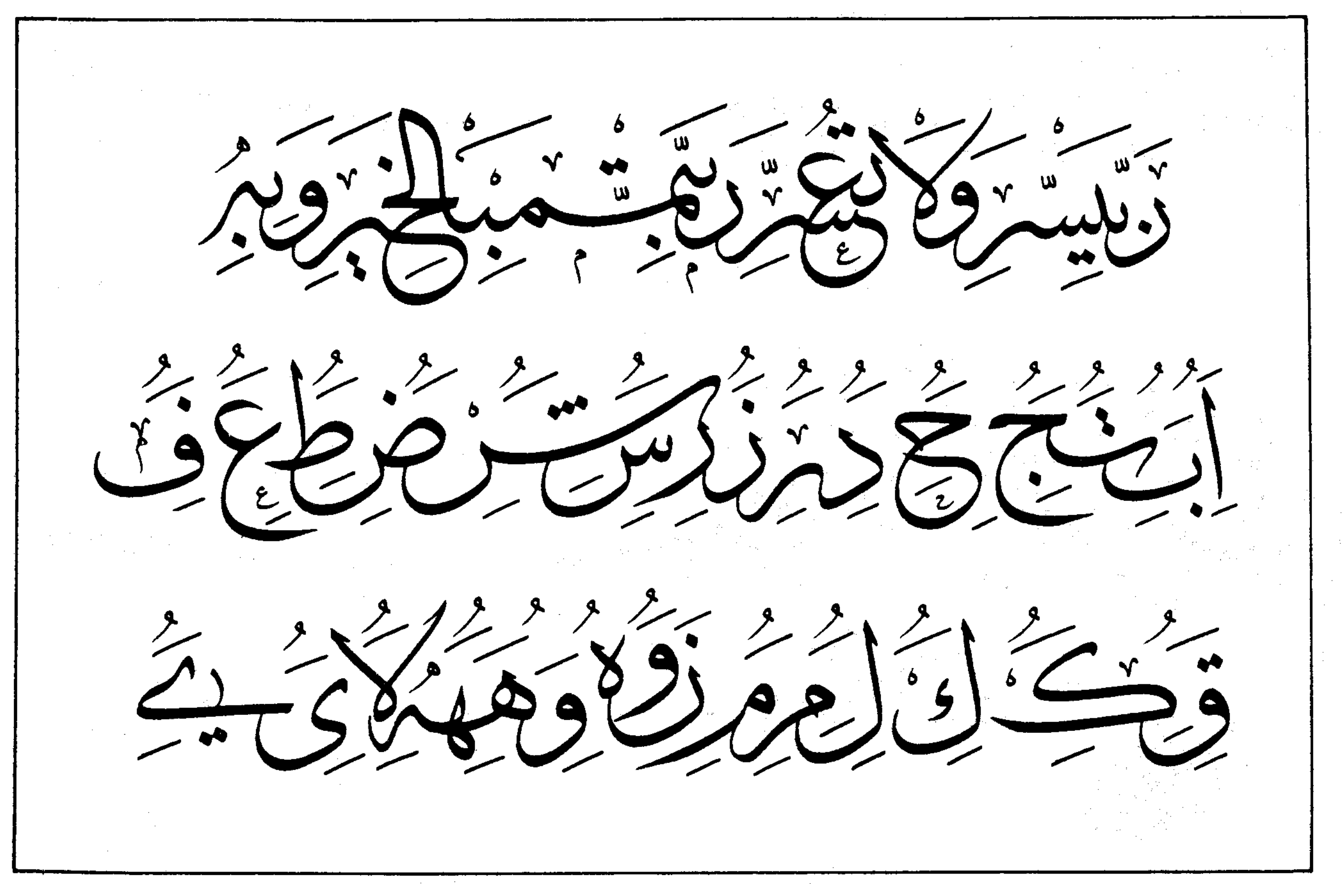
مختلسة — مدغمة — مردوفة — مخطوفة

مجموعة — مبسوطة — مقورة — مراء — مخطوفة

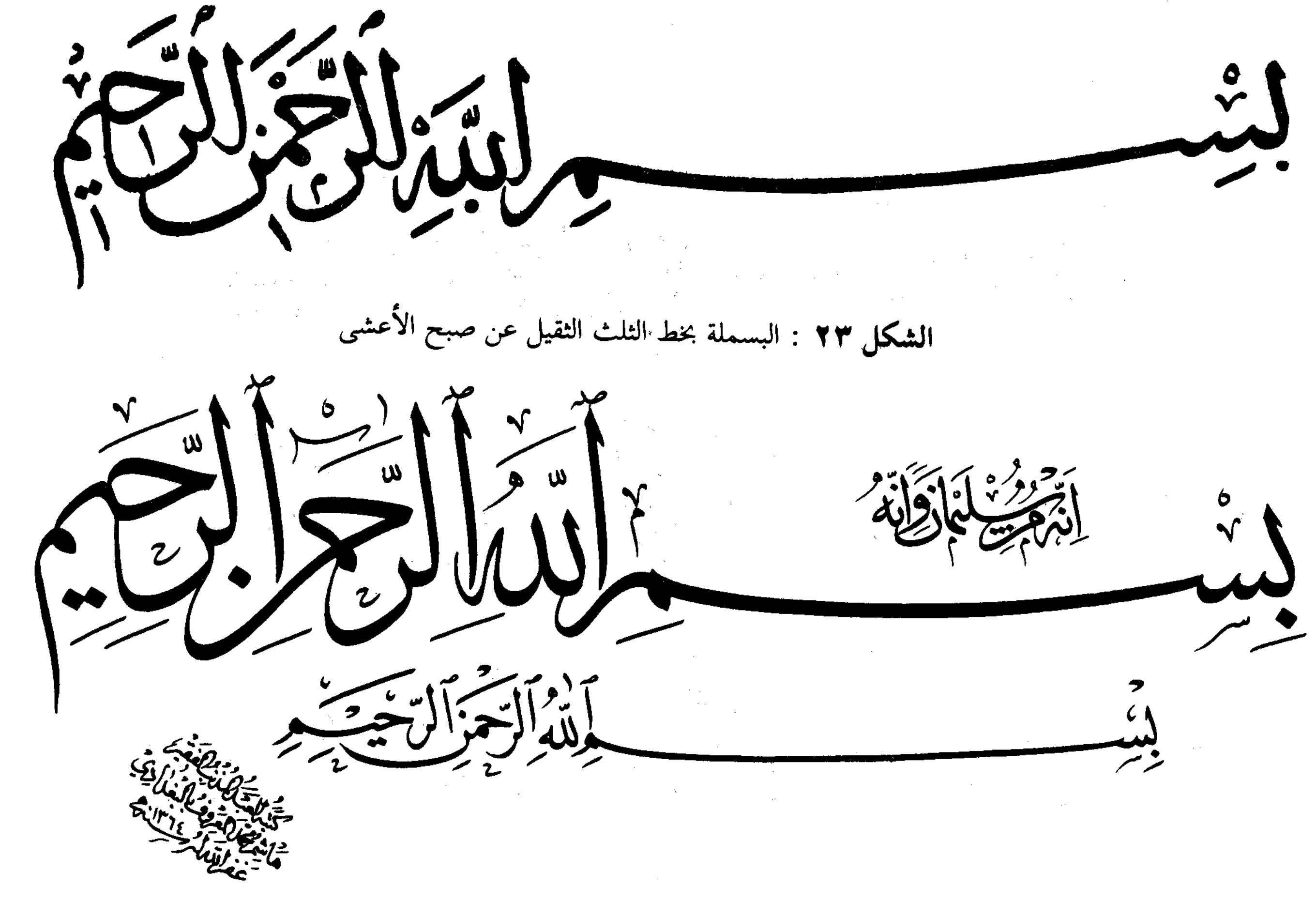
محققة مفردة — مخففة مركبة — مخففة مفردة — مراقية — مفردة مجموعة

مقورة — مبسوطة — محققة

راجعة — معلقة



الشكل ٢٢ : أبجدية قلم الثلث لهاشم البغدادي



الشكل ٢٣ : البسملة بخط الثلث الثقيل عن صبح الأعشى

الشكل ٢٤ : البسملة بخط الثلث بقلم هاشم البغدادي



الشكل ٢٥ : خط الثلث بقلم عزيز الرفاعي

٤ ـ قلم التوقيع « الإجازة »

وكما ذكرنا سابقاً فإن أول من وضعه يوسف السجزي فأعجب به الوزير الفضل بن هارون فأسماه الرياسي وأمر بتحرير الكتب السلطانية به ، وقواعده في الأصل هي قواعد قلم الثلث مع اختلاف في بعض الأمور، ومنها :

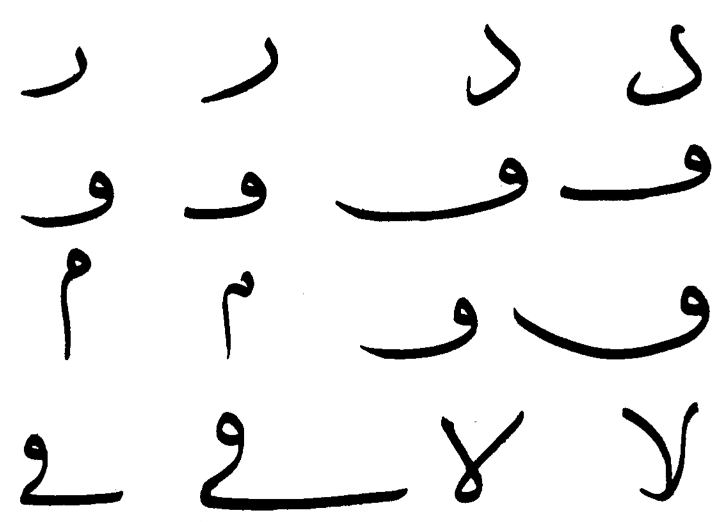
١ ـ قطته أميل للتدوير وفي الثلث للتحريف .

٢ ـ حروفه أكثر تقويراً من الثلث .

٣ ـ يمكننا ترك الترويس عن بعض حروفه .

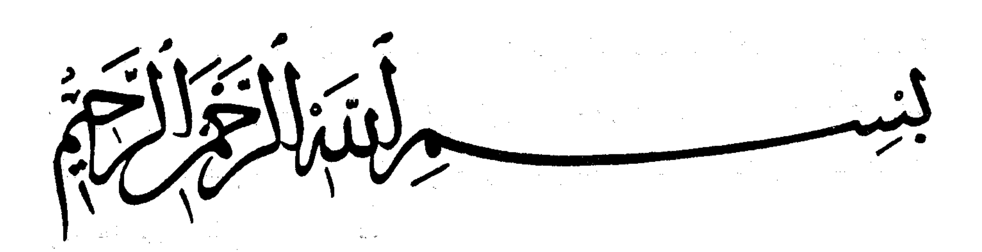
٤ ـ يُخيَّر لنا الطمس والفتح في العين المتوسطة والفاء والقاف والميم والواو وعقدة اللام ألف .

وسنورد هنا بعض أشكال الأحرف التي تتمايز أكثر من سواها عن الثلث وسنكتبها بترتيب ثلث ـ توقيع للمقارنة ، وكما سنلاحظ فإن الثلث أكبر حجماً ومساحة من التوقيع :



الشكل ٢٦ : مقارنة بين قلمي الثلث والتوقيع

كما نرى هنا أحد أشكال البسملة بخط التوقيع :



الشكل ٢٧ : صورة للبسملة بقلم التوقيع

وأخيراً نرى لوحة بخط الإجازة للخطاط الكبير الحافظ عثمان :

خط الإجازة

الشكل ٢٨ : قلم التوقيع (الإجازة)

٥ ـ قلم الرقاع

سبق وأن ذكرنا بأن تسميته بقلم الرقاع قد أتت من كتابته على الرقاع والتي هي جمع الرقعة ، والرقعة هي الورقة الصغيرة التي تتناسب والمكاتبات اللطيفة والقصص وما إلى ذلك من أمور ، ورسمه في الأصل يشابه رسم الثلث ويخالفه في بعض الأمور كـ :

١ ـ قلمه أقرب للتدوير من التوقيع ، والذي بدوره أقرب للتدوير من الثلث . وجلفة قلمه أقصر .

٢ ـ حروفه أدق من حروف التوقيع والثلث .

٣ ـ لا يقع الترويس على الألف وأخواتها إلا نادراً بخلاف الثلث والتوقيع اللذين الترويس فيهما لازم .

٤ ـ يغلب فيه الطمس في العين المتوسطة والأخيرة والفاء والقاف والميم والواو وعقدة اللام ألف المحققة .

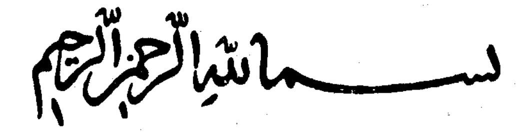
٥ ـ فيه بعض الحروف التي ينفرد بها كالألف المائلة إلى جهة اليمين .

ونرى في الشكل التالي صور البسملة بقلم الرقاع ، ونلاحظ فيها وبشكل خاص اتصال ألف الجلالة بميم بسم بشكل عضوي في حين أنها في بقية الأقلام ترتكز ارتكازاً .

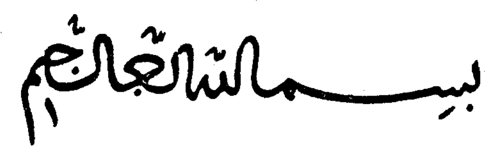
الصورة الأولى ـ أن تكون الراء فيها مدغمة ، والحاء في الرحمن والرحيم مقلوبة ؛ وهذه صورتها :



الصورة الثانية — أن تكون الراء فيها مدغمة والحاء رتقاء ؛ وهذه صورتها :



الصورة الثالثة — أن توصل الألف بالجلالة من أعلاها ؛ وهذه صورتها :



الشكل ٢٩ : البسملة بقلم الرقاع

٦ — قلم الغبار

وسمي بالقلم الغبار لدقته ونعومته ، ولصعوبة وضعف رؤيته كما تضعف رؤية شيءٍ عند إثارة الغبار من حوله ، ويكتب به في القطع الصغير من ورق الطير وغيره . فهو خط بطاقات الحمام الزاجل كما ذكرنا سابقاً ، وهذا ما دفع ببعضهم لتسميته خط الجناح .

يتصف هذا الخط بكونه خطاً دقيقاً ، أصله بين الرقاع والنسخ ، مفتَّح العقد ولا ترويس فيه ، وينبغي أن تكون قطته مائلة للتدوير لتفرعه عن الرقاع والنسخ كما ذكرنا .

ونرى في الشكل التالي الأبجدية بخط الغبار وكتابة لسيدنا علي بن أبي طالب لكاتبٍ لم نعرف اسمه .

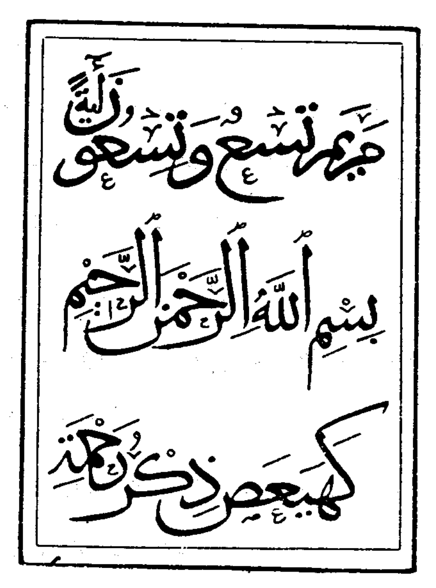
بسم الله تعالى وبه نثق
قال الإمام أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه
المعروف فروض والأيام دول ومن توانى
عن نفسه ضاع ومن قاهر الحق قهر والسلام

الشكل ٣٠ : قول للإمام علي كرم الله وجهه ، بقلم كاتب مجهول

٧ ـ قلم الثلثين

ابتكر هذا الخط إبراهيم السجزي ، وتفوق به،واشتق عنه خط الثلث فيما بعد ، وكما يتبين لنا من اسمه فإن مساحة عرضه تبلغ ثلثي مساحة الطومار ، أي ستة عشر شعرة من شعر البرذون .

ونرى في الشكل التالي نموذجاً له من بداية سورة مريم لكاتب مجهول مصدرها القاهرة ومحفوظة في متحف برلين .

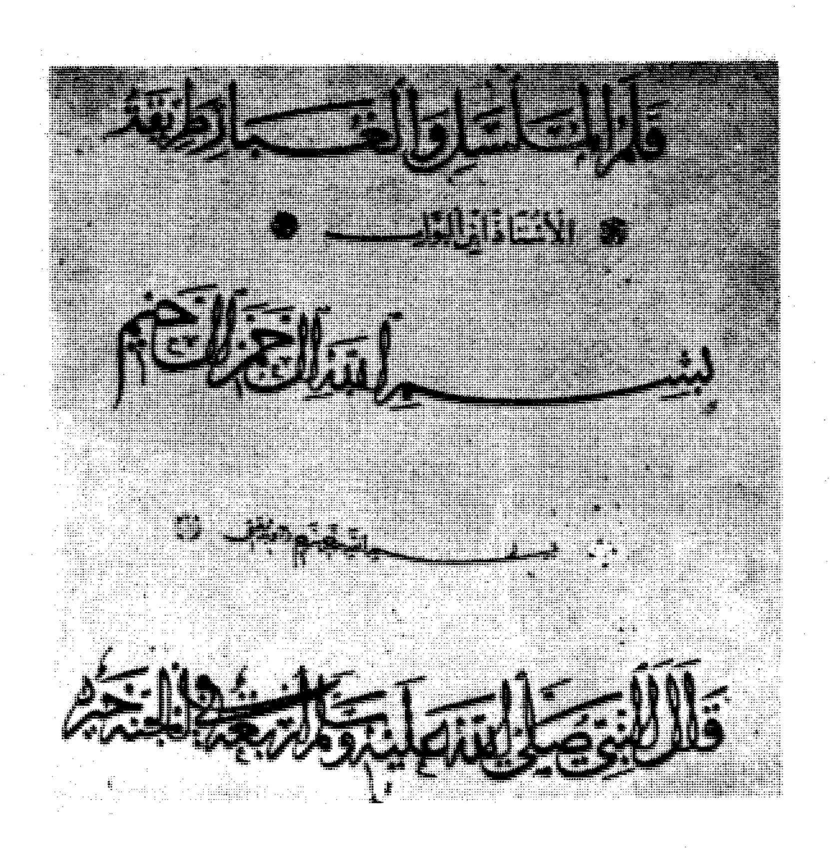


الشكل ٣١ : بداية سورة مريم بقلم الثلثين

٨ ـ قلم المسلسل

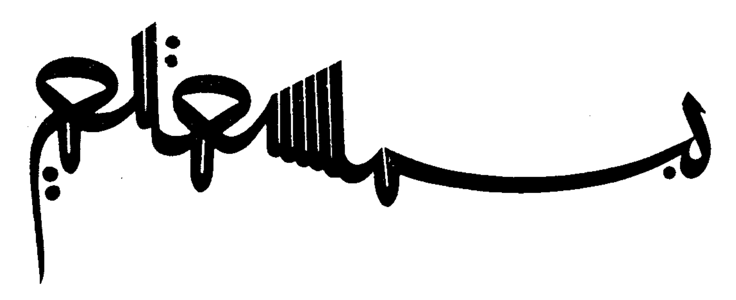
ابتكره الأحول المحرر البرمكي في العصر العباسي ، ويتميَّز هذا الخط باتصال حروفه بعضها ببعض حتى حروف (ز ر د أ و د) .

ونرى في الشكل التالي بسملة وبداية حديث شريف بخط المسلسل على طريقة ابن البواب كما وردت في بدائع الخط العربي مع بسملةٍ بقلم الغبار .



الشكل **٣٢** : بسملة وبداية حديث بقلم المسلسل

كما نرى في الشكل (٣٣) بسملة بخط المسلسل بقلم الخطاط أحمد قره حصاري في استنبول عام ١٨٧٠ هجرية .

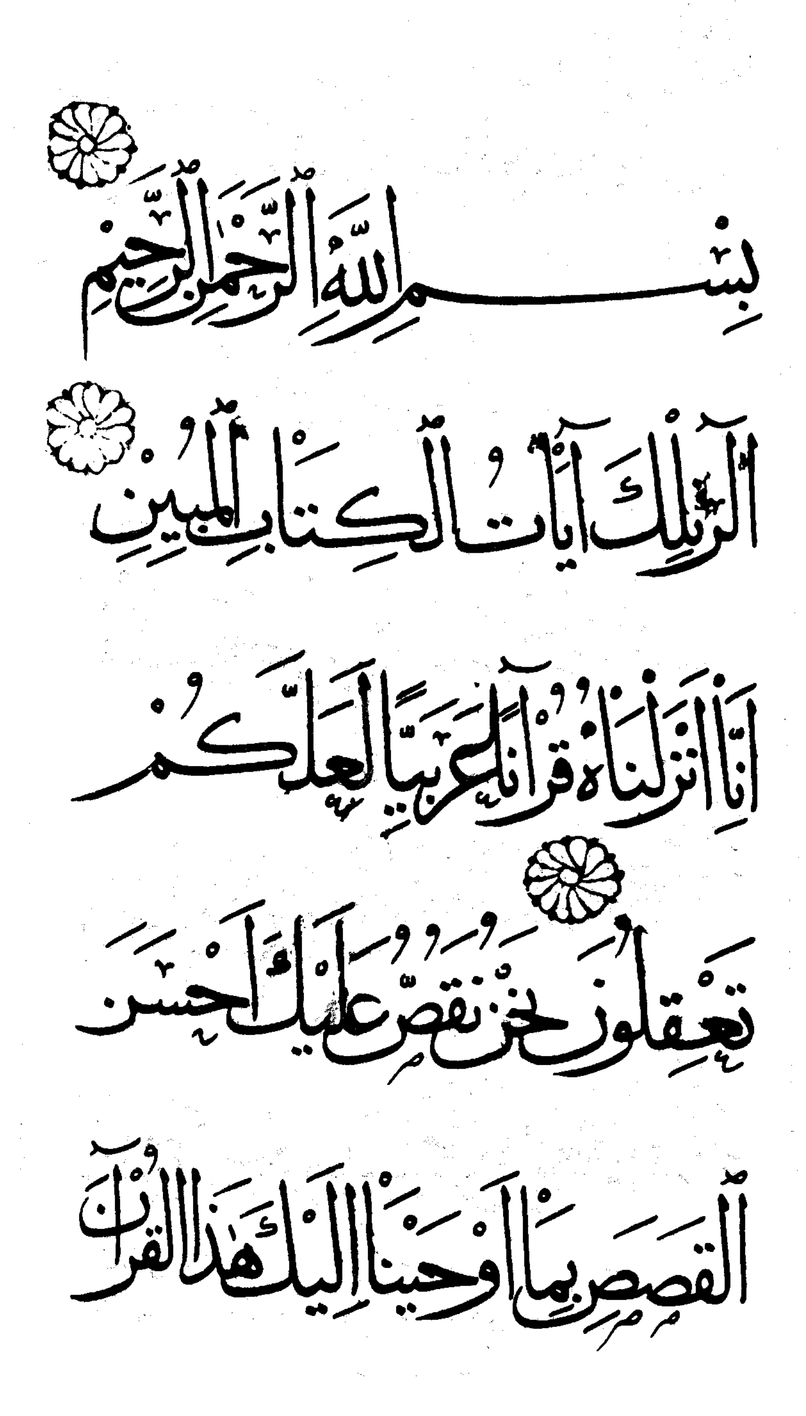


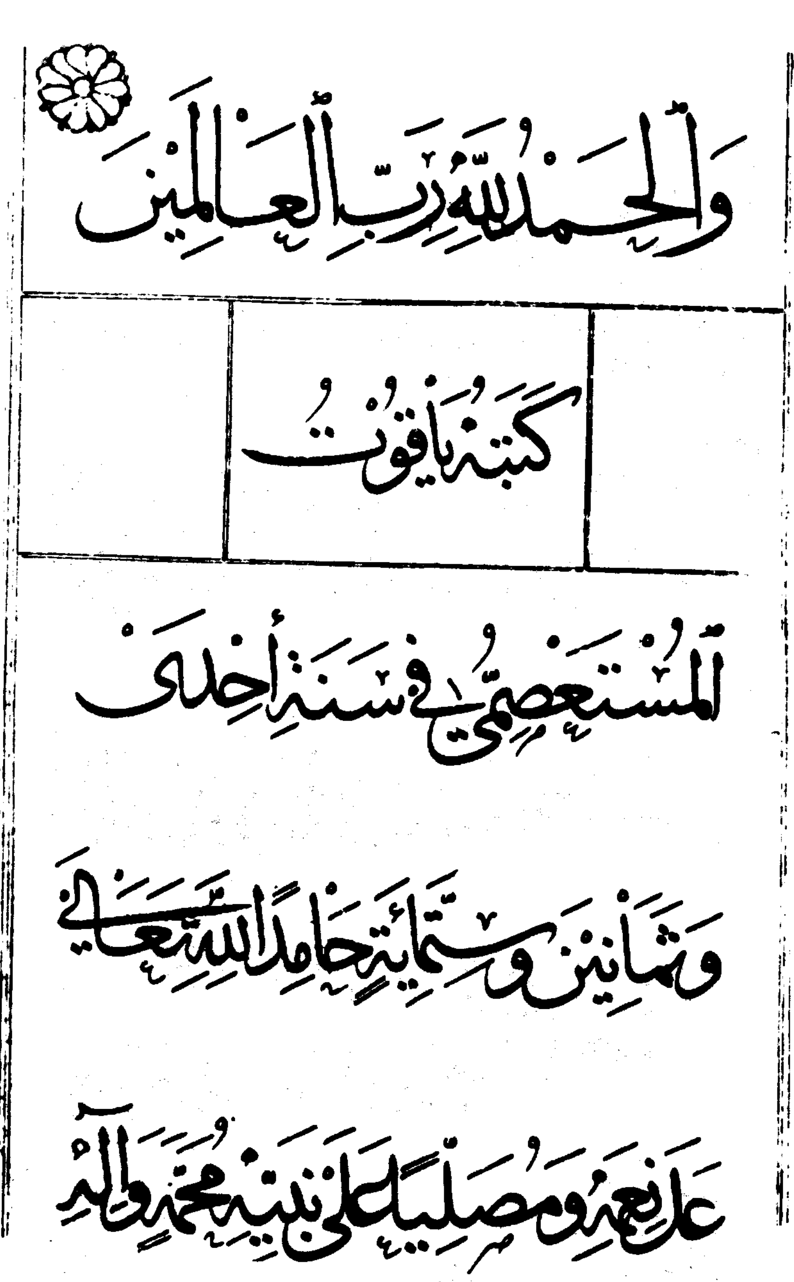
الشكل ٣٣ : خط المسلسل بقلم أحمد قره حصاري

٩ ـ قلم المحقق

ابتكر هذا الخط الخطاط البارع قطبة المحرر الذي كان أشهر الخطاطين في العصر الأموي ، وسمي هذا الخط بجلي الثلث ، تابع بعده الخطاطون تهذيبه وتنميقه حتى وصل إلى أجمل صوره على يد ياقوت المستعصمي ، والذي نرى له في الشكل التالي الصفحة الأخيرة من قرآن كتبه عام ٦٨١ ومحفوظة في (أمانة خزينة سي ــ استنبول) .

وكما يظهر لنا فإنه شبيه جداً بقلم الثلث بطمسه وترويسه وتدويراته .


بسم الله الرحمن الرحيم
الر تلك آيات الكتاب المبين
إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم
تعقلون نحن نقص عليك أحسن
القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن



والحمد لله رب العالمين

كتبه ياقوت

المستعصمي في سنة إحدى

وثمانين وستمائة حامدا الله تعالى

على نعمه ومصليا على نبيه محمد وآله

الشكل ٣٤ : ورقتان من مصحف مكتوب بقلم ياقوت المستعصمي عام ٦٨١ هـ بالخط المحقق ومحفوظتين بأمانة خزينة سي في إستانبول

١٠ ـ خط النسخ

سمي بخط النسخ لأنه الخط الذي اعتاده المؤلفين في نسخ مؤلفاتهم وبخاصة لنسخ المصحف الشريف ، وهو الخط الذي انتهى إلى عرب الحجاز في صورته الأخيرة بعد أن تحرر من صورته القديمة قبل عصر النبوة ، واستمر خطاً معتمداً في دواوين الدولة والمراسلات على امتداد أيام صدر الإسلام .

ويُنْسَب للوزير ابن مقلة وأخيه تطوير وتهذيب هذا الخط ووضعه بصورته الكاملة في بداية القرن الرابع الهجري ، ليقفز قفزة نوعية في عهد الأتابكة في أواسط القرن السادس الهجري ، وليحل محل الخط الكوفي في كتابة القرآن الكريم وبشكل نهائيٍّ ، ولدرجة أن بعض الدارسين للخط العربي ينسب هذا الخط للسوريين ، إذ يقول الدكتور عبد العزيز الدالي في كتابه الخطاطة : « وفي شمال الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجري حظي الخط العربي بنصيب من التجويد بتحويله من صوره السابقة إلى صورتين جديدتين ، إحداهما خط النسخ ، وهو ابتكار سوري شمالي حذقه السوريون الشماليون » .

وبعد ذلك جاء دور المدرسة السلجوقية الأتابكية فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر الهجريين ، والتي زادت من تجويد هذا الخط ، وبحيث أن مصاحفها جاءت غايةً في الروعة وآية في الجمال .

وأخيراً غلب على البلاد حكم الأتراك الذين أخذوا عن السلاجقة خط النسخ خطاً ناضجاً تمام النضوج فساروا فيه سيرتهم الخاصة ، وأبدع الخطاطون فيه أيما إبداع .

ونرى في الشكل التالي نموذجاً مكتوباً بخط قبلة الكتّاب ياقوت المستعصمي .

أيّ الناس أحقّ بالاحتراز منه

فقال العدوّ القويّ والمسلّط

الجائر والصديق المخادع

وسُئل إهلاك العدوّ أجزم أم إصلاحه

فقال بل إصلاحه وذلك

أنّ إصلاحه لا يهيج عداوة

وإهلاكه قد يهيج أعظم من

تلك العداوة تمّ كتاب

مسائل كسرى

والجواب

كتبه ياقوت المستعصمي في ذي القعدة من سنة ثلث وثمانين وستّمائة

حامدًا لله تعالى على نعمه ومصلّيا على نبيّه محمّد وآله الطيّبين الطاهرين

الشكل ٣٥ : الورقة الأخيرة من كتاب مسائل كسرى أنوشروان (مونيخ – ألمانيا)

خط النسخ

أ ب ج د ر ز س ص ط ع ف ق ك

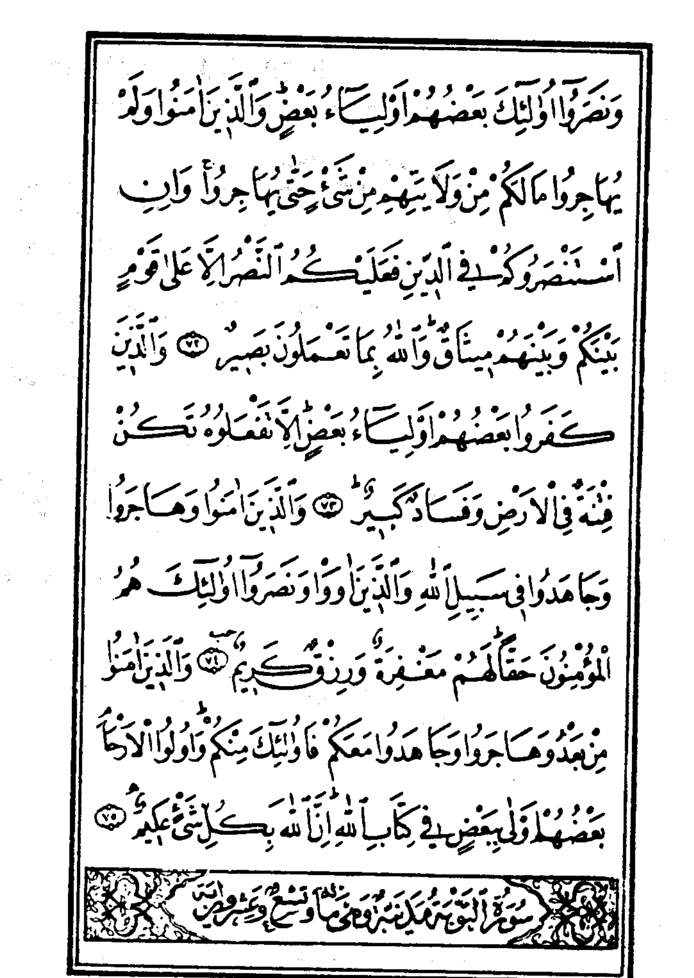
ل م ن و هـ ه لا ي ى لآ

تشكيلات وتزيين خط النسخ

الأرقام العربية والسنة - كتابتها بالنسخ والثلث

في سنة ٠١٢٣٤٥٦٧٨٩ سنة

الشكل ٣٦ : أبجدية خط النسخ بقلم هاشم البغدادي



براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴿١﴾
فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله
وأن الله مخزي الكافرين ﴿٢﴾ وأذان من الله ورسوله إلى
الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين *
ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم
غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴿٣﴾ إلا الذين
عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم
أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴿٤﴾
فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم
وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا و
أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة فخلوا سبيلهم إن الله غفور

الشكل ٣٧ : خط النسخ بقلم الحافظ عثمان

الفصل الخامس

الخط العربي في إيران

أخذ الإيرانيون المسلمون فنون الخط والتذهيب من العرب ، وأضافوا إليها وابتكروا ونمقوا كشعب له حضارته وفنونه الخاصة به ، فابتكروا أولاً خطاً كوفياً مشتقاً عن الكوفي العباسي المدات فيه أكثر وضوحاً ، ويحتفظ متحف « المتروبوليتان » بنيويورك بورقة فيها عنوان لسورة في إطار محلى بمروحة نخيلية مركبة تشبه مثيلاتها في مصاحف العصر العباسي ، ونشأ عن هذا النوع من الخط نوع آخر زوّيت فيه الحروف بشكل أكبر .

بعد ذلك تطور الخط الكوفي الإيراني تطوراً كبيراً في المصاحف السلجوقية التي تنتمي للقرنين الحادي والثاني عشر وأصبحت غنية بتذهيبها ، ويحتفظ المتحف البريطاني بنسخةٍ من القرآن تحوي عدة صفحات جميلة مذهبة ومحلاة بزخارف من ضفائر وتفريعات نباتية على الأسلوب السلجوقي بخط أبو القاسم ابن إبراهيم ، وتاريخها جمادى الأولى ٤٢٧ هـ الموافق ١٠٣٦ م .

وفي متحف « المتروبوليتان » ورقتان من مصحف سلجوقي من سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٤ م كتبتا بالخط الكوفي الإيراني ، تمثلان وبشكل رائع العناصر الزخرفية التي يمتاز بها الأسلوب السلجوقي ، وفي إحدى الورقتين عنوان سورة مكتوب بالذهب وبألوان متعددة ، أما الأخرى فمكتوبة بالذهب فقط ، ويرى فيها أن بعض الآيات مكتوب بخط كوفي يعتبر غاية في الزخرفة

إذ تنتهي فيه المدات بزخارف نباتية بديعة وتكتسي الأرضية بحلة من الوريدات والتفريعات المذهبة .

وظهر في القرن الثالث عشر الميلادي نوع جديد من الخط عرف بخط التعليق ، الذي يمتاز بميلان ألفاته إلى اليمين بصعودها من أسفل إلى أعلى .

تلا ذلك ظهور طبعات فاخرة للملاحم الفارسية التي تستلزم جهود الرسامين المصورين ، الذين تباروا في إنجاز تصاوير رائعة لأهم المناظر من شاهنامة الفردوسي وأشعار نظامي العاطفية في المجنون وليلى وخسرو وشيرين ونصوص أخرى شائعة ومحبوبة جداً ، وقد تأثرت هذه الصور والرسوم بالفن الصيني ، وخاصة في وصف المناظر الطبيعية الخلابة التي تضفي الجو الرومانسي على الملاحم والقصص .

بعد ذلك انتقل مركز الإبداع في الخط إلى شيراز وهراة ، واكتسبت عاصمة خراسان أهمية خاصة ، وتغلبت في فن الخط كتابة فارسية جديدة ابتكرها « مير علي » وأطلق عليها اسم « نستعليق » الذي يحمل صفات وميزات خطي النسخ والتعليق معاً لتعطي خطاً يُعَدُّ الأكثر رشاقةً من غيره من الخطوط وبذلك يكون « مير علي » التبريزي واحداً من كبار أعلام ومجودي الخط العربي في القرن الخامس عشر ، ويعتبر من أعظم مشاهير خطاطي القرن الخامس عشر « سلطان علي المشهدي » ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ ــ ١٥٠٠ م ، الذي كتب النستعليق بأروع مظاهره ، حتى قيل أنه أحسن من كتبه ، وأيضاً « جعفر البيسنقري التبريزي » و « عبد الكريم الخوارزمي » و « إبراهيم سلطان بن شاه رخ بن تيمور جورجان » ، وقد عمل عبد الرحمن الخوارزمي وولده عبد الكريم في تبريز وأدخلا تحسينات على خط النستعليق . كما تميز إبراهيم سلطان بمقدرته العالية حتى أنه كان يكتب بستة أساليب خطية مختلفة .

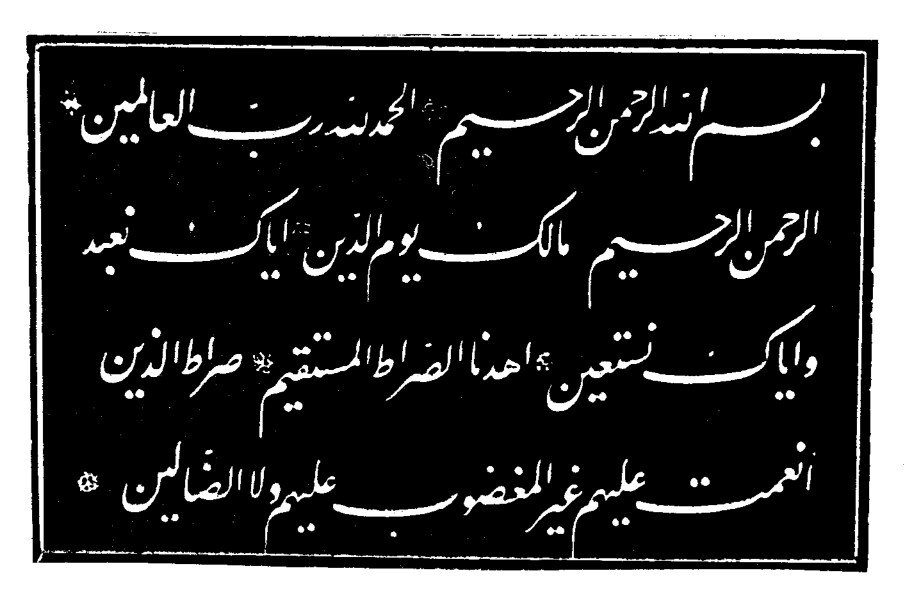
وفي الثلث الأخير من القرن الخامس عشر ظهرت أعمال « بهزاد » العظيم الذي نبذ المصورات على الطريقة المغولية عند مصوري هراة ، وأسس طرازاً وطنياً واقعياً سليماً ، وعمل في القصر الملكي من عام ٩١١ – ٩٢٦ هـ . وجاوزت شهرته فارس ونبغ من تلاميذه الكثيرون مثل « سلطان محمد » مدير الأكاديمية والمعرض في عهد الشاه طاهماسب .

وضمَّ البلاط الصفوي في تبريز خطاطاً من أعظم الخطاطين وهو « سلطان محمد نور » ، وهو ابن وتلميذ سلطان علي مشهدي ، كما كان الشاه « محمود النيسابوري » من أشهر الخطاطين في عهدي الشاه إسماعيل والشاه طاهماسب ، كما عظم في عهد الشاه عباس شأن « مير عماد » ١٠٠٨ هـ = ١٦٠٠ م والذي نسخ الكثير من المخطوطات للشاه عباس والتي نافسه فيها الخطاط « علي رضا عباسي » .

ومن المفيد أن نذكر هنا أن الإيرانيين كانوا يكتبون بالخط البهلوي قبل وصول الإسلام إليهم (نسبة إلى بهلا الواقعة قرب همدان) ، وعندما حلّ التوحيد لله بدلاً عن عبادة النار والشمس شعروا بالحاجة لقلم الخط العربي لنسخ القرآن وقراءته ، وفعلاً دخل الحرف العربي بلاد فارس وأزاح الخط البهلوي شيئاً فشيئاً مع بعض التعديل لوجود ألفاظ وأحرف فارسية ليست موجودة أصلاً باللغة العربية ، وهم كشعب عريق ذي حضارة يشهد لها التاريخ تمكنوا بسهولة ويسر من تملك الخط والحرف العربي من بدايات القرن الثالث الهجري ، عندما أخذوا خط النسخ وأدخلوا في رسومه زوائد تتناسب وألفاظهم فبدأ يتميز عن أصله حتى قيل أن « حسن فارسي » كاتب عضد الدولة الديلمي قد استنبط القواعد الأولى لخط التعليق بمزج أقلام النسخ والرقاع والثلث ، وزاد على ذلك بأن وضع خط التراسل أو التحريري ،

ويقال أن أقدم المخطوطات المكتشفة بهذا الخلط من الأقلام مخطوطة مؤرخة بعام ٤٠١ هـ .

ونرى في الأشكال التالية نموذجاً لقلم النستعليق وأبجدية خط النستعليق ونموذجاً له .ثم أبجدية خط التعليق ولوحة بخط المرحوم بدوي .

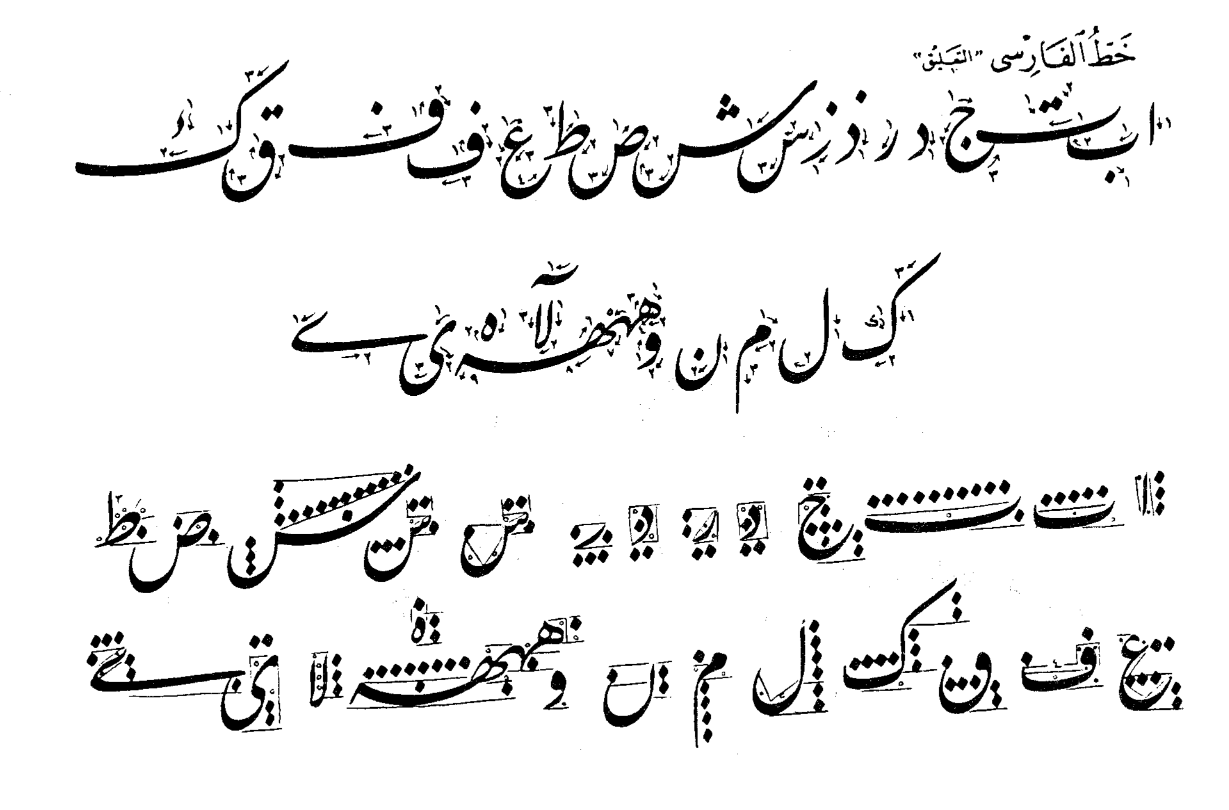


الشكل **٣٨** : خط نستعليق

ا ب ج د ر ذ ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق

ك ك ل م ن و هـ ه لا ي ي با

الشكل **٣٩** : أبجدية خط النستعليق بقلم الشيخ عبد العزيز الرفاعي



الشكل ٤٠ : أبجدية خط التعليق بقلم هاشم البغدادي

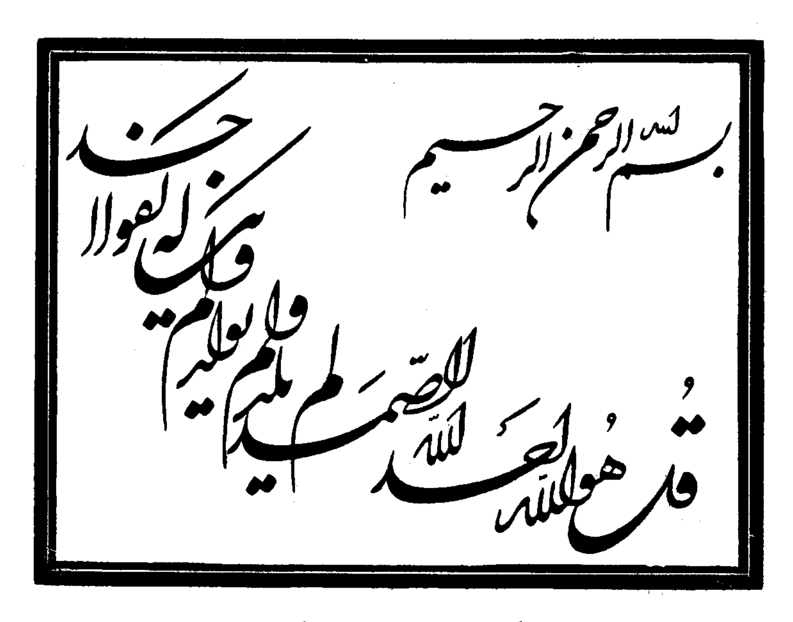


الشكل ٤١ : من كتابات المرحوم بدوي الديراني

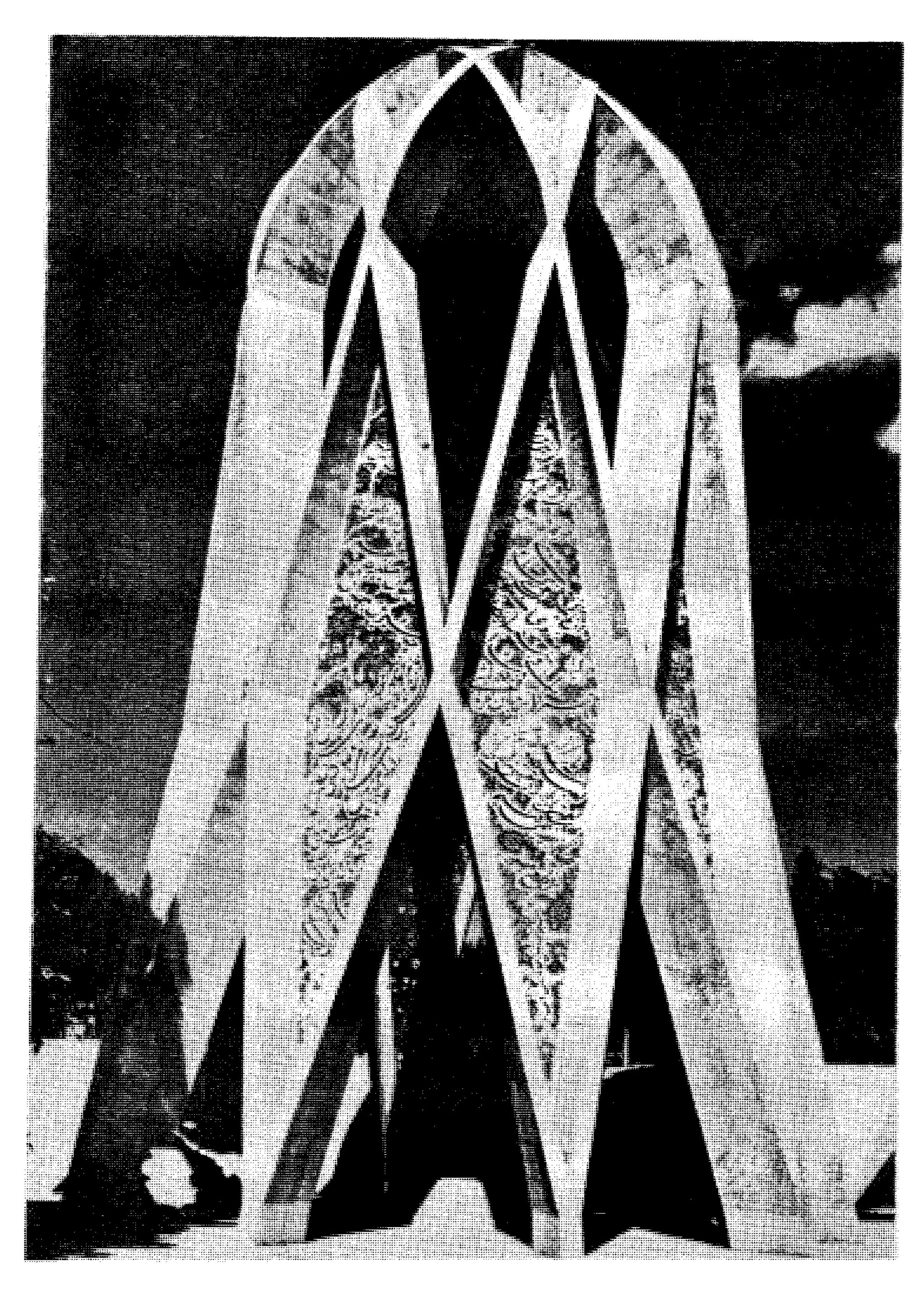
خط الشكستة :

هذا الخط الإيراني الأصيل تلقُّه الكثير من المعلومات غير الصحيحة عنه ، ذلك أنه خط عزيز على قلوب الإيرانيين ، يعتزون به ويفاخرون ، ويتمسكون به ويحتفظون لصعوبة تداوله خارج البلاد بدون تلمذة إيرانية . وهذا ما دفع ببعض المؤلفين والدارسين لتكوين أفكار مغالطة عنه ، ومهما يكن من أمر ، فقد اعتمده الإيرانيون كخط للكتابة اليدوية لما يتميز به من الرشاقة والحيوية والتي لا يمكن بلوغها فيه إلا بالمران الصعب الشاق الطويل .

وقد تم اشتقاق هذا الخط من الخطين التعليق والديواني وإن كانت بعض الآراء قد ذهبت إلى أن هذا الخط هو أقدم الخطوط الفارسية نشأةً وتداولاً . ونرى في الشكلين التاليين الصمدية بهذا الخط ، وصورة لقبر شاعر إيران الكبير عمر الخيام وقد ملأته كتابات بخط الشكستة .



الشكل ٤٢ : خط الشكسته



الشكل ٤٣ : قبر شاعر إيران الكبير عمر الخيام

الفصل السادس

الخط العربي في الأندلس والمغرب العربي

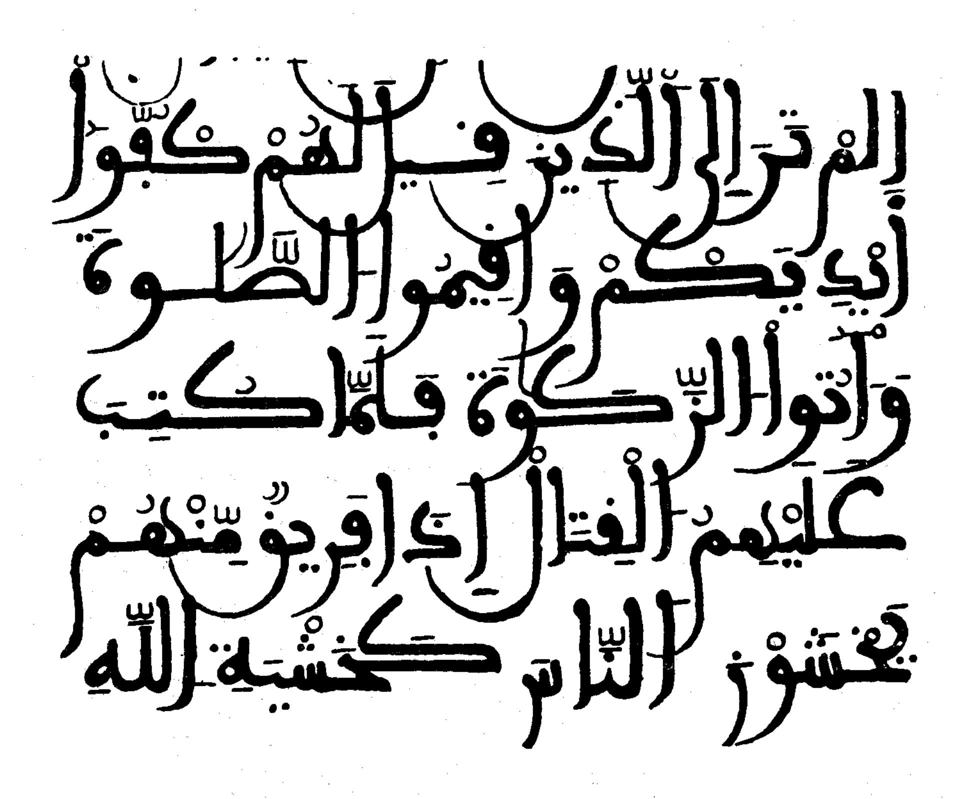
احتفى المغربيون والأندلسيون احتفاءً عظيماً بالخط العربي ، فأخذوه وزادوا عليه وطوّروه بحسب أذواقهم وفنونهم ومهاراتهم ، وقد ذكر الضبي في « بغية الملتمس » أن الوزير الشاعر حسان بن مالك ابن أبي عبيدة وزير المنصور بن أبي عامر والذي كان يقيم في الأندلس قد ألف وصوّر كتاباً ونسخه في أسبوع وقدمه هدية للمنصور ، ووصلت الحال في الأندلس إلى أن هجر الإسبان لغتهم كما يقول « دوزي » في كتابه « تاريخ المسلمين في إسبانيا » كي يتعلموا العربية نطقاً وكتابةً حتى لم يعد هناك من يقرأ الكتب المقدسة باللاتينية ، بل ترجمت إلى العربية كي يقرؤها نصارى الأندلس ، حتى أن طليطلة قد بقيت زهاء القرنين معتمدةً اللغة العربية تقريباً بعد رجوع النصرانية على يد ألفونس السادس عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م .

وأمتلأت مكتبات الأندلس بالمخطوطات حتى وصلت المكتبة الأموية في قرطبة ذروتها أيام المستنصر بن عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٩ هـ / ٩٦١ م ، وقد حوت ما يزيد عن أربعمئة ألف مجلد مخطوط نهبت وضاعت بعد حصار قرطبة عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م ، وما زالت بقاياها في مكتبة الأسكوريال قرب مدريد حتى اليوم .

وبعد سقوط غرناطة ورحيل آخر ملوك الإسلام « عبد الله الصغير » عن قصر الحمراء عام ١٤٩١ م بعد تعهد فرديناند وإيزابيلا بترك المسلمين على حريتهم ومالهم ودينهم ، قام الكاردينال زيمانس روسيس نيروس بحمل المسلمين على التنصر وأمر بحرق الكتب العربية في غرناطة ، إلا أن هؤلاء المسلمين أبقوا على إسلامهم سراً وظلوا يعتمدون على اللغة العربية لفترة ليست بالقصيرة لكتابة القرآن والحديث وكتب الأدعية والصلوات والفقه إلى أن صدر قانون عن الامبراطور شارل عام ٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م يحرم استخدام اللغة العربية للمخاطبة وارتداء الثياب العربية واستعمال الحمامات .. ، ومع ذلك فقد غضّ الامبراطور بعض الشيء عن تنفيذ هذا القانون بدقة وأطلق على المسلمين المتنصرين لقب الموريسكيين إلى أن خلفه ابنه الملك فيليب الثاني عام ٩٦٢ هـ / ١٥٥٥ م ، وأصدر قانوناً حازماً جداً ملخصه « يمنح الموريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية ، ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد منهم أن يتكلم أو يكتب اللغة العربية أو يتخاطب بها ، وكل معاملات أو عقود تجري بالعربية تكون باطلة ولا يعتد بها عند القضاء أو غيره » . وأمر بجمع الكتب العربية ، ومنع تحجب النساء ، وأمرهم بارتداء المعاطف والقبعات ، وإجراء الاحتفالات طبقاً لتقاليد الكنيسة ، وقد صدر هذا القانون عام ٩٧٤ هـ / ١٥٦٧ م فقامت ثورة في جبال منطقة البشرات أخمدها الجيش الإسباني بقيادة الدوق خوان أخو الملك ببحرٍ من الدماء .

كل ذلك دفع بالموريسكيين لابتكار لغةٍ منحوتة من اللغة القشتالية والعربية والرومانية وسميت بلغة الألخميادو ، وقد عرفها العلامة منذيت أي بلايو « بأنها اللغة الرومانية القشتالية تكتب بأحرف عربية » من جهة ، ولانحسار تطور الخط العربي في الأندلس أسوةً بباقي أقطار العالم التي دخلها المسلمون وأسسوا فيها حضارة ونهضةً ثقافية من جهةٍ أخرى .

ومع ذلك فإن الأندلس قد تميزت بخط كوفي سمي بالخط الأندلسي ، أو القرطبي نسبةً إلى قرطبة ، ويتميَّز بتقوس أشكاله كما نرى في الشكل التالي .



الشكل ٤٤ : الخط الأندلسي

أما المغرب العربي فقد ظهر فيه الخط القيرواني نسبة للقيروان عاصمة المغرب المؤسسة عام ٥٠ هـ ، والتي اكتسبت أهميتها عندما انفصل المغرب عن الخلافة العباسية وصارت عاصمة الدولة الأغلبية ومركز المغرب العربي العلمي والثقافي ، ويتميز هذا الخط كما نرى في الشكل التالي باستطالة حروفه .

فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء
على الكافرين (27) الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي
أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى
إن الله عليم بما كنتم تعملون (28) فادخلوا أبواب
جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين (29)
وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين
أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير
ولنعم دار المتقين (30) جنات عدن يدخلونها تجري
من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك
يجزي الله المتقين (31) الذين تتوفاهم
الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم
ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون (32) هل
ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر
ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم
الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (33)
فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا

به يستهزئون (34) وقال الذين أشركوا لو
شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا
ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين
من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين (35)
ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله
واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم
من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض
فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (36) إن
تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما
لهم من ناصرين (37) * وأقسموا بالله جهد
أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا
ولكن أكثر الناس لا يعلمون (38) ليبين لهم الذي
يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا
كاذبين (39) إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول
له كن فيكون (40) والذين هاجروا في الله من
بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر

الشكل ٤٥ : صفحة من القرآن الكريم بالخط القيرواني « رواية ورش »

كما نرى في الشكلين التاليين الخط القيرواني بأسلوبيه السنغالي والسوداني .

الشكل ٤٦ : خط قيرواني : سنغالي وسوداني

الفصل السابع

الخط العربي في العهد العثماني

لعب قيام الدولة العثمانية وامتداد سلطانها على معظم البلدان العربية وجيرانها في آسيا وأفريقيا وعلى أجزاء كبيرة من أوروبا دوراً كبيراً في انتقال المهارات الفنية المتقدمة والصناعية المبدعة إلى عاصمة الدولة الجديدة القسطنطينية التي أصبح اسمها فيما بعد استنبول ، وكان من جملة ما استقطبت هذه العاصمة الفنية والتي كانت تغلي بأسباب التقدم والحضارة ، استقطبت الخطاطين والمذهبين والمصورين والمجلدين ومن كان في ركبهم في عالم صناعة الكتاب ليتابعوا تطورهم وإبداعهم سواء أكانوا من أصولٍ عربية أو فارسية ، فزادوا على الخط تطويراً وألبسوا الكثيرين من الأتراك حلة الخط العربي حتى نبغ العديد من أئمة الخطاطين الذين أمكنهم وبدعم من رجالات الدولة أن يثبتوا أقدام خطوط جديدة ابتكروها وقواعد أخرى أضافوها فبلغ الخط العربي أعلى مراتبه ووصل حدود الكمال .

والحقيقة أن فضل المدرسة العثمانية على الخط العربي كان كبيراً جداً في التجويد والإبداع ، فقد أخذت من المدرسة المملوكية قلمي الثلث والثلثين وطورتهما ، وعن السلجوقية النسخ كخط ناضج وزادت عليه إبداعاً ، ثم أضافت خطوط الرقعة والديواني والهمايوني وجلي الديواني وتفردوا بالطغراء وتوجوا بها أوامرهم السلطانية .

وقد ورث العثمانيون حب الخط والخطاطين عن سلاطين مصر الفاطميين والمماليك ، بل بلغ منهم أن العديد من سلاطينهم تتلمذ على أيدي كبار خطاطي ذلك العصر ، إذ تتلمذ السلطان مصطفى خان الثاني وأحمد خان الثاني على يد الحافظ عثمان ، وتتلمذ محمد خان الثاني على يد الخطاط مصطفى راقم ، والسلطان عبد المجيد الثاني على يد الخطاط مصطفى عزت ونال منه إجازة .

وانتشر الخط في عهدهم انتشاراً كبيراً ، فكان العنصر والمقوم الرئيسي في تزيين المساجد والقصور والمتاحف والحمامات والحلي والملابس ... ، وكان عدد الخطوط المعمول بها في القرن الحادي عشر ثلاثين نوعاً .

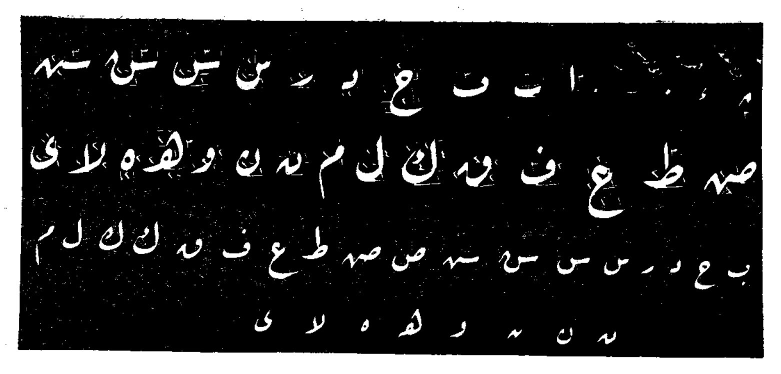
وفي سنة ١٣٢٦ هجرية افتتحت نظارة المعارف التركية (وزارة التربية) مدرسة لتعليم الخط والنقش والتذهيب في الأستانة العاصمة ، وأصبحت مادة الخط العربي مادة رئيسية في مناهج التعليم حتى أنه أصبح لا يمكن قبول أي موظف في الدوائر الحكومية دون أن يجتاز امتحاناً في الخط .

واعتمد العثمانيون على الخط العربي اعتماداً كبيراً كعنصر إعلامي يساعدهم على توطيد حكمهم ، فقد خُطَّت عبارة « السلطان ظل الله على الأرض » في مسجد بورصة الكبير على مساحة تعادل أربعة أمتار مربعة ، إضافة لعبارات أخرى نجدها في المساجد كعبارتي « الملوك ملهمون » و « دعاء السلطان سبب الغفران » .

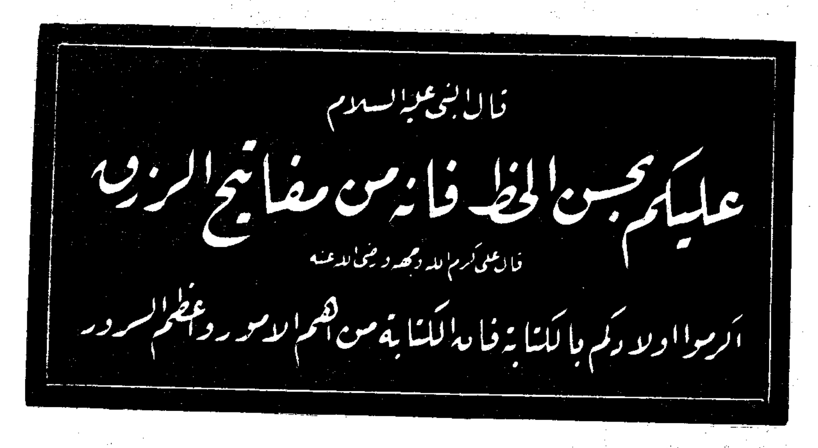
١ ــ **الخط الرقعي** : يعد الفضل للأتراك في وضع قواعد هذا الخط في القرن التاسع الهجري ، إذ اكتشفت كتابات ونصوص قديمة ترجع لعام ٨٨٦ هـ بخط السلطان القانوني بخليط من حروف النسخ والديواني الدقيق القديم ، أما أبجدية الخط الرقعي في شكله الحالي ، فيعود الفضل في وضعها إلى المستشار أبو بكر ممتاز بك بن مصطفى أفندي في عهد السلطان عبد المجيد

خان عام ١٢٨٠ هـ ، بهدف توحيد خطوط موظفي الدولة في كافة المعاملات الرسمية التي ترد لدواوين الدولة .

وقد سمي بخط الرقعة نسبةً للرقعة وهي قطعة الورق التي يكتب عليها دون أن يكون له أي علاقة بخط الرقاع السالف ذكره ، ويتميز هذا الخط بقصر حروفه وسهولة وسرعة كتابته ، وفي حين أن المطابع قد اتخذت من خط النسخ حروفاً لها فإن خط الرقعة هو الخط المعتمد للكتابة باليد ، ونرى فيما يلي بعضاً من نماذخ هذا الخط وأبجديته .



الشكل ٤٧ : أبجدية خط الرقعة بقلم محمد عزت



الشكل ٤٨ : من كتابات محمد أفندي سنة ١٣٤١

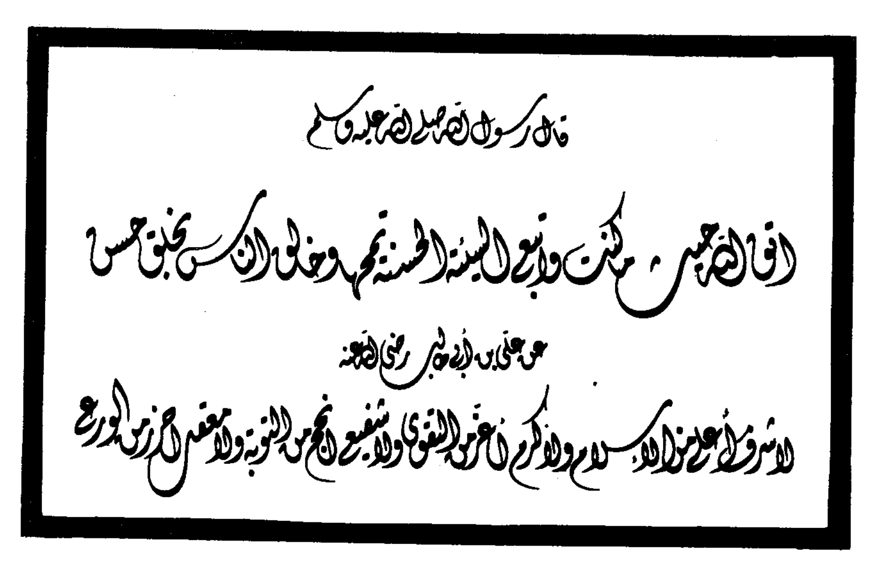
٢ ـ **الخط الديواني** : يعتبر هذا الخط واحداً من الخطوط القديمة النشأة والبطيئة التطور ، إذ أن بداية نشأته كانت في عهد السلاجقة حتى جاء عهد السلطان العثماني محمد الفاتح بعد فتحه القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ ، وكان يكتب إذ ذاك بخليط من حروف ذات أشكال تكاد تكون مزيجاً من الثلث والنسخ والريحاني . واعتمده خطاً رسمياً في الدولة لكتابة قرارات وبلاغات الدولة .

وفي عهد السلطان محمد الثاني قام الخطاط محمد منيف بوضع أصوله واستمر على هذه الحال مع بعض التطور إلى أن انتهى تجويده للصدر الأعظم شهلا باشا في عهد السلطان أحمد الثالث والخطاط الشهير الحافظ عثمان .

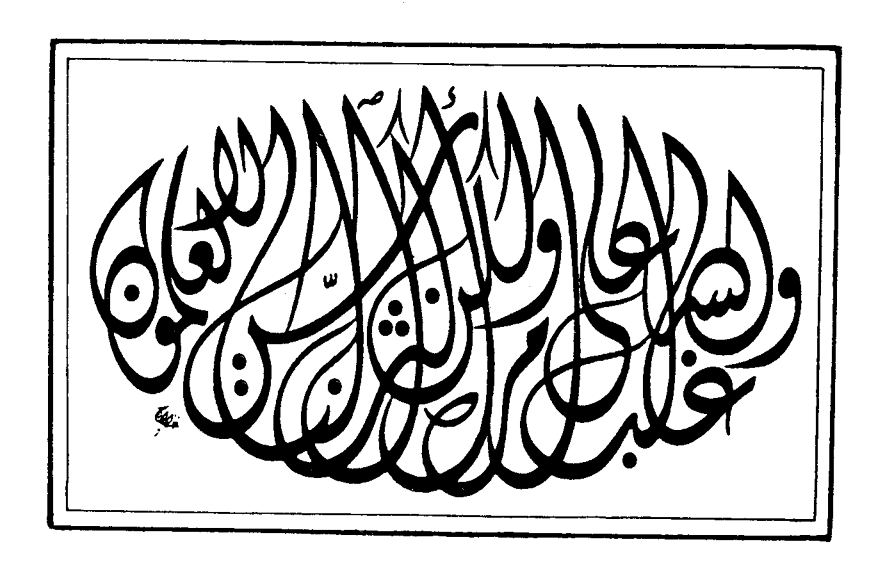
وقد سمي هذا الخط بالديواني كونه اعتُمِدَ بدواوين الملوك والسلاطين لكتابة التعيينات في الوظائف الرسمية الكبيرة والمناصب الرفيعة ومنح البراءات والإنعامات بالأوسمة وما يصدره الملوك من الأوامر الخاصة .

ونرى في الشكل التالي أبجدية ونماذج من هذا الخط .

الشكل ٤٩ : أبجدية الخط الديواني



الشكل ٥٠ : من الخط الديواني بقلم هاشم البغدادي

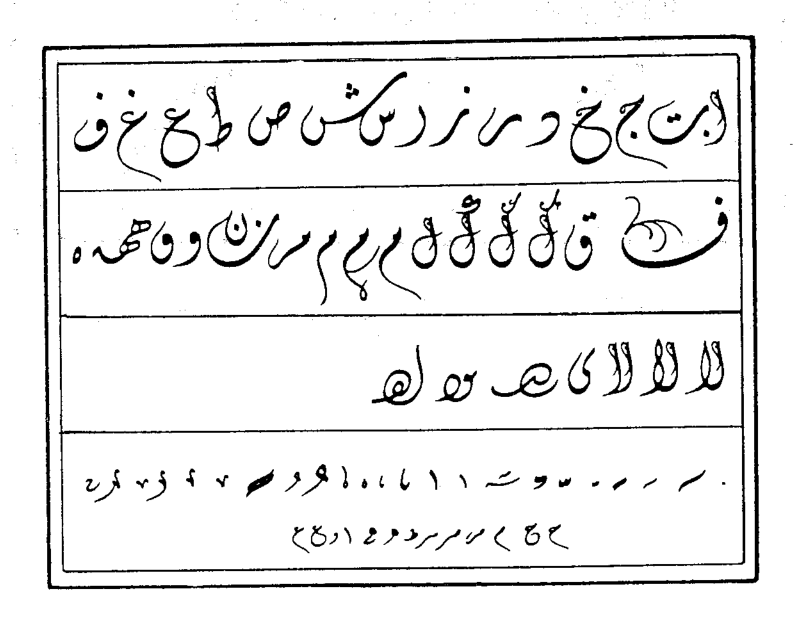


الشكل ٥١ : الخط الديواني بقلم المرحوم غزلان والذي سمي نسبة له بالخط الغزلاني

٣ ـ **خط جلي الديواني** : اشتق هذا الخطَّ عن الخط الديواني الصدرُ الأعظم شهلا باشا في نهاية القرن العاشر الهجري وبداية القرن الحادي عشر ، وسمي بالديواني الجلي لاشتقاقه من الخط الديواني أولاً ، ولتجاوزه سماكة الخط الديواني بما يعطيه سمات الوضوح ، والجلي في اللغة يعني الواضح .

روّجه الخطاطون العثمانيون وأولوه عناية فائقة وخصوا به المراسيم السلطانية والرسائل الموجهة للدول الأجنبية ، وقد امتاز عن أصله الديـواني ببـعض الحركات الإعرابية والنقط المدورة الزخرفية واختلاف شكل حروفه عن أصلها الديواني قدراً بسيطاً ، وقد تمكن الخطاطون من كتابة روائع خالدة فيه ، إذ يمكننا حبكة حروفه بعضها مع بعض بحسن توزيعها وإحكام ترتيبها .

ونرى في الأشكال التالية أبجديته وبعض اللوحات بهذا الخط الرائع .



الشكل ٥٢ : أبجدية خط جلي الديواني بقلم هاشم البغدادي



الشكل ٥٣ : البسملة بخط جلي الديواني للخطاط حليم

الفصل الثامن

الكوفة والخط الكوفي

نشأة الكوفة : تنبع أهمية الحديث عن نشأة الكوفة من أهمية دحض الأصل الكوفي للخط العربي ، فقد أنشأ الكوفة سعد بن أبي وقاص بأمرٍ من الخليفة عمر بن الخطاب بين عامي ١٧ و ١٩ هـ ، على مقربة مس الحيرة والأنبار ، وكانت أول أمرها معسكر خيام تحولت مع الزمن لمبانٍ من اللبن ، وكانت غالبية سكانها من الجنود والعرب وبعض التجار والحرفيين وكان معظمهم من الفرس .

اختلط فيها العرب بالفرس ، وامتاز سكانها بمواهبهم في مضمار العلوم الإسلامية قبل انقضاء نصف قرن على إنشائها ، وبحكم موقعها الجغرافي ورثت عن الأنبار العناية بالخط ، وعن الحيرة المكانة السياسية كون الحيرة عاصمة اللخميين من قبل .

الخط الكوفي : ذكر القلقشندي في صبح الأعشى على لسان الشاطبي : « إن الخط الكوفي يرجع إلى أصلين هما التقوير والبسط ، أي اللين والمزوي : وعلى ترتيب هذين الأصلين الأقلام الموجودة الآن » .

وعلى هذا فالخط الذي عرفته الكوفة هو الخط المقور الذي تكثر فيه التدويرات ، وهذا الخط رافق المبسوط المتميز بالزوايا فلا تحديب ولا تقويس في حروفه ورسومه ، فكأنه قد رسم بالمسطرة . وعرف بالخط الكوفي .

وفي نسبة الخط الكوفي للكوفة يعزو بعض الباحثين هذه النسبة إلى أن أسلوب الكوفة في البناء ، والذي يعتمد على صنع الطوب بالقوالب ، أمكنهم من تنفيذ بعض الكتابات على الجدران بدون أية مشاكل تعيقهم . فاعتمدوه وانتشر .

وبعد نشوء البصرة والكوفة وقيام التعليم فيهما ، بذلت عناية خاصة لتطويره ونشره حتى بلغت أنواعه وباختلاف أقاليم انتشاره الاثني عشر نوعاً على ما أورده أبو حيان التوحيدي وهي : الإسماعيلي والمكي والمدني والأندلسي والشامي والعراقي والعباسي والبغدادي والمشعب والريحاني والمجوّر والمصري ، وكل فروقها عن بعضها فروق تسميات إقليمية أكثر منها فروق خصائص .

وقد كان الكوفي القديم صعب القراءة لعدم نقطه وشكله ، وتشابه أحرفه ، وكان هناك تأثير متبادل بينه وبين النسخ ، مما أدى إلى ظهور الخط الكوفي المائل في أواسط القرن الرابع الهجري ، إلا أن جميع المصاحف السابقة لهذه الفترة كانت مكتوبة بالكوفي القديم .

ونذكر أكثر من ذلك أنه عندما أرسل سيدنا عثمان بن عفان المصاحف الستة للأمصار . المكي والشامي والبصري والكوفي والمدني العام والمدني الخاص الذي حبسه لنفسه أرسل مع كل مصحف إماماً قارئاً ، فكان زيد ابن ثابت مقرىء المدني ، وعبد الله بن السائب مقرىء المكي ، والمغيرة بن شهاب مقرىء الشامي ، وأبو عبد الرحمن مقرىء الكوفي ، وعامر بن عبد قيس مقرىء البصري .

ومع ذلك فإن الكثير من المؤرخين يؤكد على أن هذه المصاحف قد كتبت بالخط المدني بأنواعه « المدور والمثلث والتئم » فكانت نقطة البدء في تجميل وتنميق الخط العربي في سائر البلدان . ولكن الكوفة ذاتها كانت أسبقهم

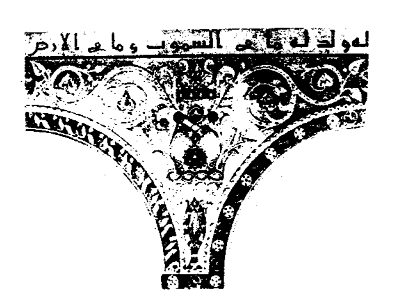
في هذا المضمار ، لأنها كانت حاضرة العالم الإسلامي ومركز ثقافته .

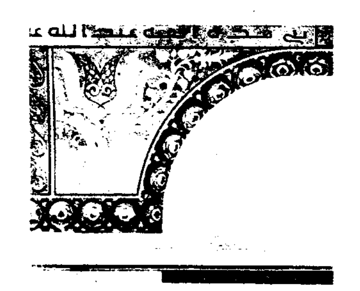
أنواع الخط الكوفي : يذكر بعض دارسي الخط العربي أن أنواعه تزيد عن الخمسين نوعاً ، ذلك أن تقسيمات أنواعه قد اتخذت أسماءً بحسب الشكل أو العهد . فنقول من حيث الشكل:الكوفي البسيط والمورق والمضفر .. ونقول من حيث العهد :فاطمي ومملوكي وأندلسي وسلجوقي .. ، ومع هذا فإن التقسيم الأول أعم وأشمل وأبسط كونه يتضمن الأنواع جميعها أولاً ، ولكون الفروق بين أنواع التقسيم الثاني فوارق غالباً ما تكون بسيطة من حيث أنها فروق مظاهر أكثر منها فروق خواص . وبحسب التقسيم الأول تندرج أنواع الخط الكوفي تحت خمسة عناوين وهي :

١ ــ **الكوفي البسيط** : وهو النوع الذي لا تلحقه العناصر الزخرفية كالتوريق والتضفير ، ومادته كتابية بحتة . وقد انتشر في العالم الإسلامي انتشاراً كبيراً في القرون الهجرية الأولى .

ومن أشهر أمثلته كتابة قبة الصخرة في القدس .

٢ ــ **الكوفي المورّق** : وهو النوع الذي يتميز بزخارف تشبه أوراق الشجر ، وتنبعث من حروفه القائمة والمستلقية ، وقد بدأت ظاهرة التوريق في مصر وبخاصة في العهد الفاطمي ، وقد قال فيه الخطاط المرحوم كامل البابا : « لقد نفخ العربي في الحرف الحياة ، وحوّله من جمادٍ إلى نبات ، تنبثق عنه أغصان وأوراق وأزهار ... » ومن أشهر ما كتب فيه بعض نماذج في كتابات (آمد) في ديار بكر في تركيا شمال العراق وسوريا وكتابات جامع ابن طولون .







الشكل ٥٤ : كتابة قبة الصخرة في بيت المقدس . وتقرأ فيه :

له ما في السموات وما في الأرض . بنى هذه القبة عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه

ونرى في الشكل التالي نموذجاً منه من العهد السلجوقي في الأناضول كتبت فيه البسملة وزينت فراغاتها بزخارف نباتية على شكل أقواس تزيد من جمال وحيوية الحرف الكوفي وتخفف قسوته .



الشكل ٥٥ : البسملة بالخط الكوفي المورق

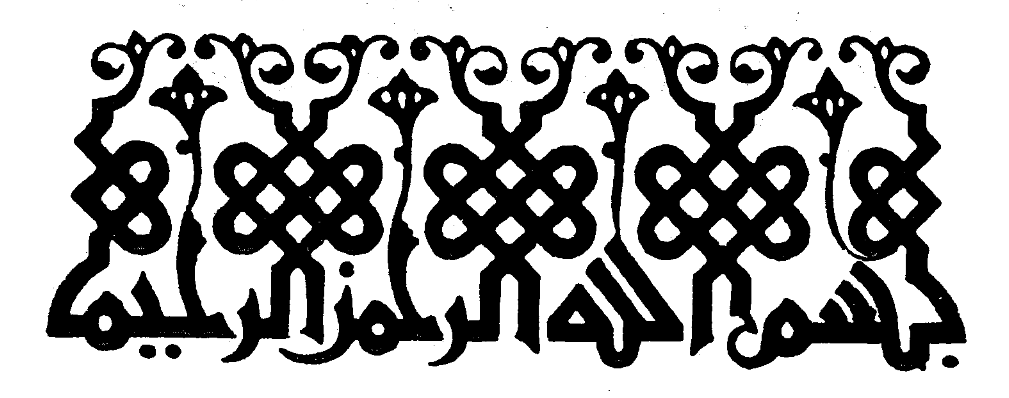
٣ ـ الخط الكوفي المزخرف (المُزَهَّر) : وفيه تتم الكتابة على أرضية تُملأ فراغاتها وتزيَّن بزخارف أصلها نباتي كسيقان النباتات اللولبية ، وعرفها فنانو الغرب فيما بعد باسم (أرابسك) ، ونرى بعض نماذج هذا الخط في مدرسة السلطان حسن بالقاهرة وإيران وغزنة .

ويبين الشكل التالي لوحة للخطاط محمد عبد القادر كتب فيها عام ١٣٧٦ هـ القدوس السلام .

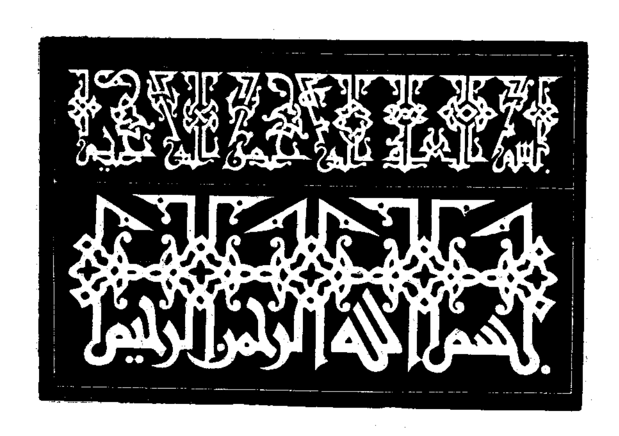


الشكل ٥٦ : الخط الكوفي المزهر

٤ ــ **الخط الكوفي المعقود أو المضفَّر** : نشأ هذا الخط في القرن السادس الهجري ، وهو نوع من الزخارف المبالغ في تعقيدها أحياناً إلى حد يصعب فيه على القارىء تمييز حروفها بعضها عن بعض أو حروفها عن زخارفها ، وقد تضفر فيه الكلمة الواحدة كما في الشكل (٥٧) ، أو قد تضفر كلمتان متجاورتان أو أكثر كما في الشكل (٥٨) لنحصل في النهاية على ضفائر غاية في الروعة .



الشكل ٥٧ : خط كوفي معقود الحروف العلوية



الشكل ٥٨ : الخط الكوفي المضفور

ومن أشهر نماذجه تلك الكتابات في قلعة راكان بإيران (٤١١) هـ ، والمسجد الجامع بالقيروان (٤٣١) هـ ، ومدخل جامع الناصر محمد بن قلاوون في مصر بالقلعة ، ومسجد السيدة رقية بدمشق ، وقصر الكزاز في إشبيلية .

٥ ـ **الخط الكوفي الهندسي الأشكال** : ويمتاز عن بقية أنواع الخط الكوفي بشدة استقامته وزواياه القائمة ، أساسه هندي بحت ، ولا تزال نشأته غامضة ، ويُعتقد أن فكرة الزخرفة بالطوب المختلف الحرق في العراق وفارس هي التي أوحت به[1] ، ويشيع هذا الخط في مساجد إيران والعراق .

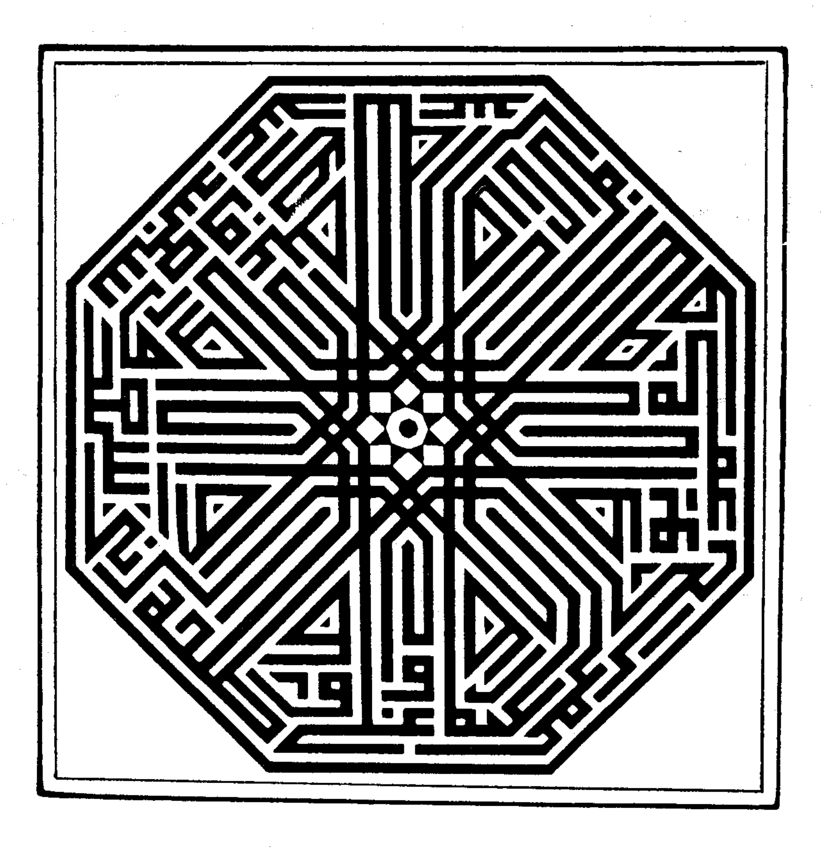
ومن أشهر أمثلته في مصر في مسجد السلطان قلاوون (٦٨٤) هـ ، ومسجد زين الدين يوسف (٦٩٣) هـ ، وفي تركيا مسجدي فوه ورشيد الأثرية .

وتنطوي تحت هذا النوع الكتابات الهندسية المثلثة والمسدسة والمثمنة والمستديرة ... ، والنوع في مجموعه زخرفي بحت ، وقد تتعدد قراءة عباراته لشدة تداخلها واشتراك حروفها .

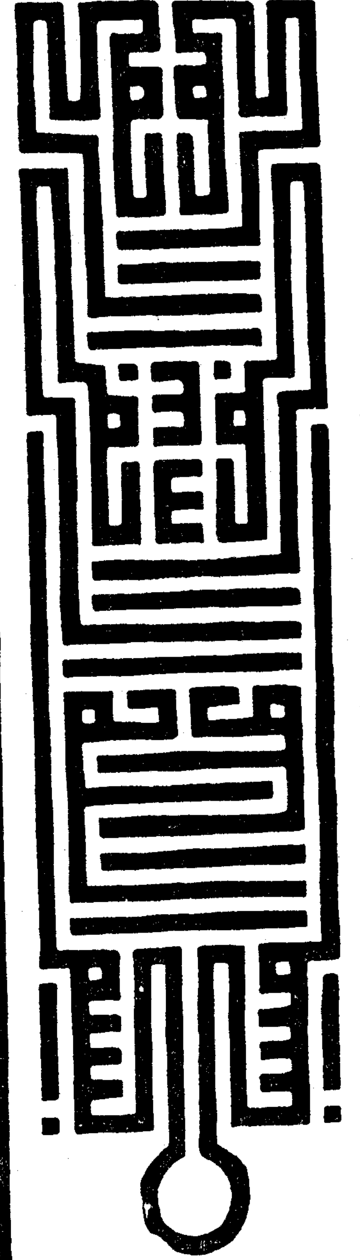
ونرى في الأشكال التالية مجموعة من نماذج له .

---

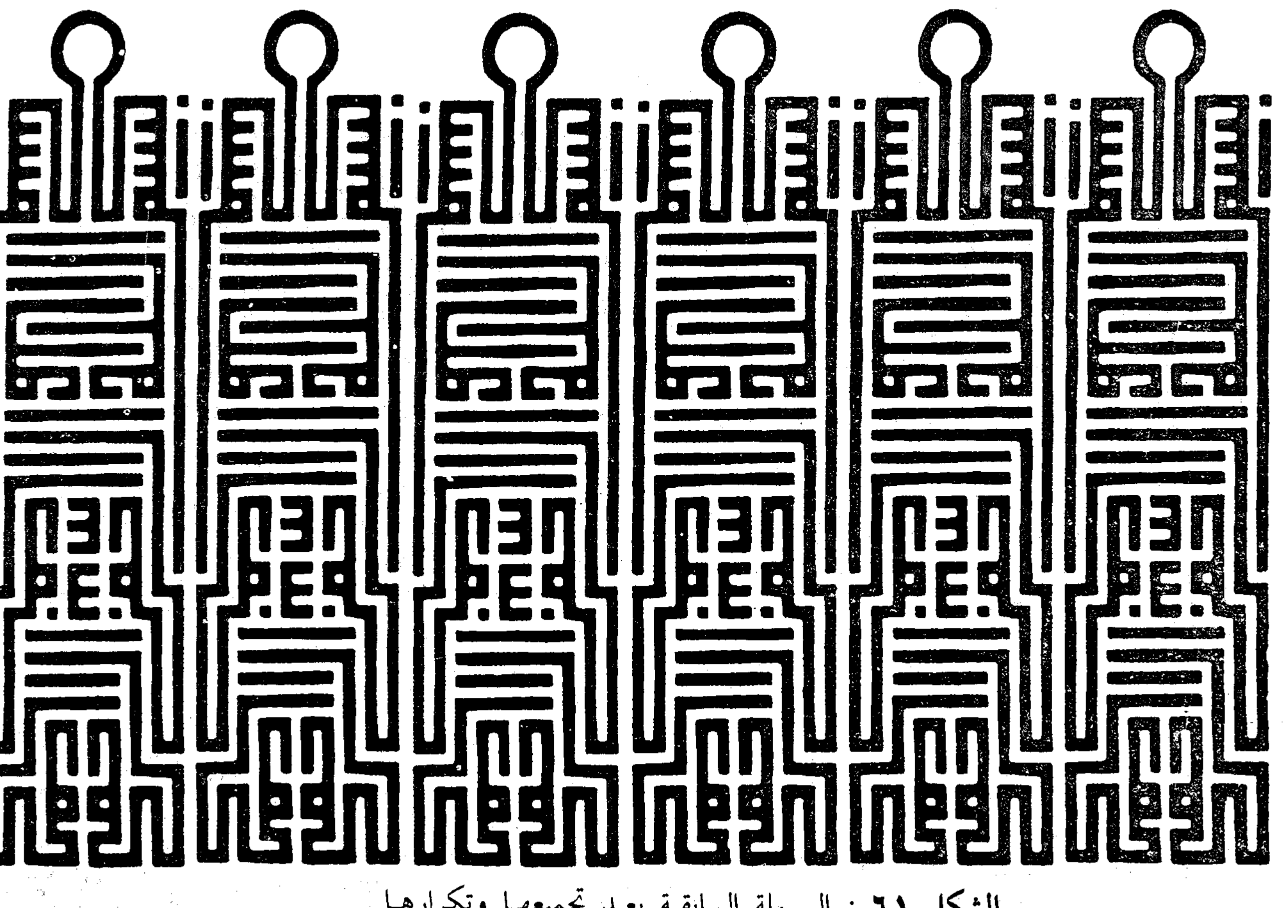
(١) تعرف طريقة الزخرفة بالطوب المختلف الحرق بزخارف الهزارباف ، ويتم تشكيل الطوب بأوضاع رأسية وأفقية بحيث تنشأ أشكال هندسية وكتابية لا حصر لها .



الشكل ٥٩ : أسماء الصحابة العشرة المبشرين بالجنة بالخط الكوفي الهندسي



الشكل ٦٠ : البسملة بخط الكوفي الهندسي



الشكل ٦١ : البسملة السابقة بعد تجميعها وتكرارها كمجموعة وحدات

الفصل التاسع

الطغراء

يميل معظم دارسي الخط العربي إلى اعتبار الطغراء خطاً مستقلاً قائماً بذاته ، ولكننا لو تدارسناها لوجدناها ضرباً من ضروب مزج الخطوط وفنونه .

الطغراء في التاريخ :

روى ناجي زين الدين في « بدائع الخط العربي » أنه قد ورد في « أصناف الكتاب » أن أول من افتتح رسائله بالبسملة من الأنبياء سليمان بن داود عليه السلام ، وأول من كتب أما بعد من العرب قس بن ساعدة الأيادي ، وأول من طبع الكتاب عمرو بن هند ، وكانت العرب تقول في افتتاح كتبها وكلامها « باسمك اللهم » وجرى الأمر على ذلك حتى نزلت الآية ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فصارت البداية بها سنَّة إلى يومنا هذا .

ولقد أورد ملك أقسل في (تركلرده ديني رسملر ، استانبول ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م) الطرفة حول أصل الطغراء في احتمال كونها شعاراً للسلطان أوغوز خان ، وقد شبهوها بالطير الأسطوري « سميرغ » عند الفرس والعنقاء عند العرب ، وفي رأي آخر أن الطغراء صنو كلمة (همايون) أو

(هما) الأسطورية التي تعني (طير السعد) والذي إذا وقع ظله على رجل انتخب ملكاً .

الطغراء في العصر المملوكي :

أطلقت كلمة الطغراء على شارة استعملها بعض الخلفاء المسلمين ومنهم سلاطين مصر المماليك وبخاصة محمد بن قلاوون سنة ٧٥٢ هـ ، وقيل أن الطغراء كلمة تاتارية الأصل تعني اسم السلطان الحاكم ولقبه ، وأن أول من استعملها السلطان العثماني الثالث مراد الأول ٦٧١ ــ ٦٩٢ هـ .

وأقدم ما عثر عليه من طغراوات طغراء كانت تستعمل في المكاتبات الهامة جداً باسم السلطان المملوكي الناصر حسن بن السلطان الملك محمد قلاوون .

وألزمت طبيعة وطريقة تكوين الطغراء الخطاطين الخروجَ عن قواعد الكتابة بشكلٍ كبير جداً وباتجاه الرسم ، فجاء من هذا التطوير خط جديد القولبة أطلق عليه خط الطغراء ، والواقع أن هذا الكلام تخالطه المغالطة لحد كبير ، ذلك أن الحرف الذي يكتب بشكل ما في الطغراء نعود لنكتبه في موضع آخر من الطغراء نفسها أو في طغراء أخرى سواء أكانت للعبارة نفسها أو لعبارة أخرى بشكل آخر ووفق ما يناسب الشكل العام لتكوين الطغراء ، وهذا ما يمنع أن نسمي الطغراء خطاً مستقلاً ، لكثرة قوالبه ومرونة موازينه ، ومع ذلك فإنه يمكننا القول أن الطغراء تكتب بخط ناشىء من تزاوج خطي الإجازة والديواني .

ويقول القلقشندي في صبح الأعشى بشأن الطغراء أو الطرة : فإذا كتب كاتب منشوراً أخذ عن تلك الطغراوات المكتوبة واحدة وألصقها فيما كتبه ثم كتب بأسفلها بقية وصلها في الوسط هذه الجملة (خلَّد الله سلطانه) .

وكانت مستعملة إلى آخر الدولة الأشرفية في مصر ، التي دالت في معركة

مرج دابق عام ٩٢٢ هـ بين السلطان سليم والسلطان شعبان بن حسين ، فانتقلت معدات ملكهم إلى خزائن استنبول مع مصاحفهم ومخطوطاتهم ، وتطورت الطغراء فيما بعد على أيدي خطاطي الدولة العثمانية حتى وصلت إلى شكلها الأخير الذي رسمه الخطاط مصطفى راقم سنة ١٢٤١ هـ قبل استبدال الخط العربي كخطٍ رسمي للدولة التركية بالخط اللاتيني ، وكانت العادة أن تكتب الطغراء بخط جلي الديواني مع البراءات أو الأوامر السلطانية .

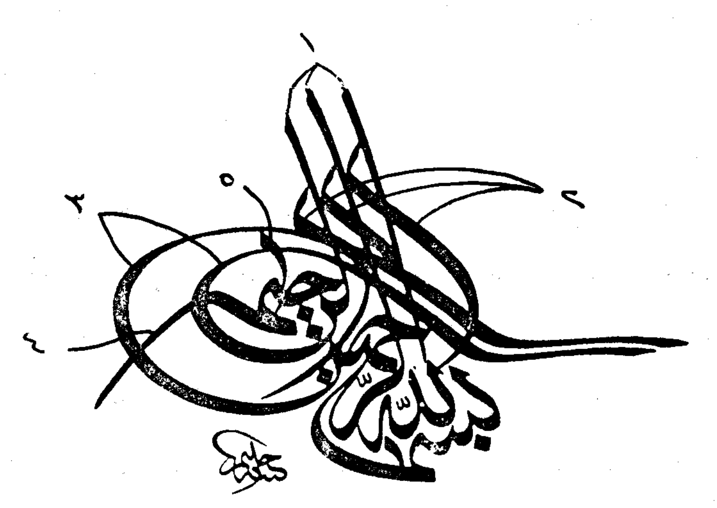
واختير الخط الديواني القديم وجلي الديواني الذي كان يسمى بالهمايوني للكتابة بأسفل الطغراءات لانسجامه مع الخط الديواني الذي كانت تكتب به الطغراء ذاتها ، والمعتمد في الديوان الأعلى للدولة التي يرأسها السلطان تميزاً لاسمه المقدس وتنزهه عن العامة ، إذ كان كثيراً ما يوافق الطغراء عبارات تعز السلطان ، فطغراء السلطان سليمان القانوني كانت ترافقها أبداً عبارة « المظفر دائماً » .

على أن هناك قصة طريفة « تفسِّر نشأة الطغراء ، وتتلخص هذه القصة بأنه عندما توترت العلاقات بين تيمورلنك وبايزيد العثماني أرسل تيمور إلى بايزيد إنذاراً لم يمهره بتوقيعه لجهله الكتابة بل بصمه بصماً ، فأمسى توقيع الطغراء معتمداً عند سلاطين آل عثمان ، وكان أول من بدأ بتوقيع الطغراء السلطان سليمان بن بايزيد في أوائل القرن السادس عشر ميلادي .

وعموماً فإن الطغراء تكتب عادة بنوعين من الخطوط ، هما الثلث أو الديواني ، تنساب خطوطها بشكل متناغم ومتقاطع لتعطي تكويناً انسيابياً صلباً ، يعاني من زخمٍ في وسطه يتكامل مع باقي حركات الطغراء ، ويمكننا أن نقول بأن الطغراء قد أخذت شكلاً ثابتاً يقوم على ثلاثة امتدادات من الألف أو اللام (١) ، تتناقص في طولها ، وثلاثة أقواس (٢) ترجع بدايتها

إلى الخلف قليلاً لتنتقض بشكل مفاجىء إلى الأمام ، ومن خطين (٣) يتقوسان إلى الخلف ويرتدان إلى الأمام ويتمددان ، وخط لين (٤) يعاني صعوداً يليه هبوط مفاجىء ليقطع القوسين (٣) ، وأخيراً نجد ألفاً صغيرة (٥) تقطع القوسين (٣) غالباً ، تمثل الريشة التي كان يضعها السلطان على عمته متشرفاً بها كونها تمثل خدمة بيت الله الحرام ، لكون السلطان كان خادماً لبيت الله الحرام وخاصة في المناسبات الرسمية عندما يقوم بغسل وكنس الكعبة المشرفة ، وهذا تاج يتشرف به أمثال هؤلاء السلاطين . والعمة نفسها تعني خدمة الإسلام والعلماء المسلمين ، وقد سمي السلطان آنذاك بسلطان الخافقين وخادم الحرمين الشريفين* .

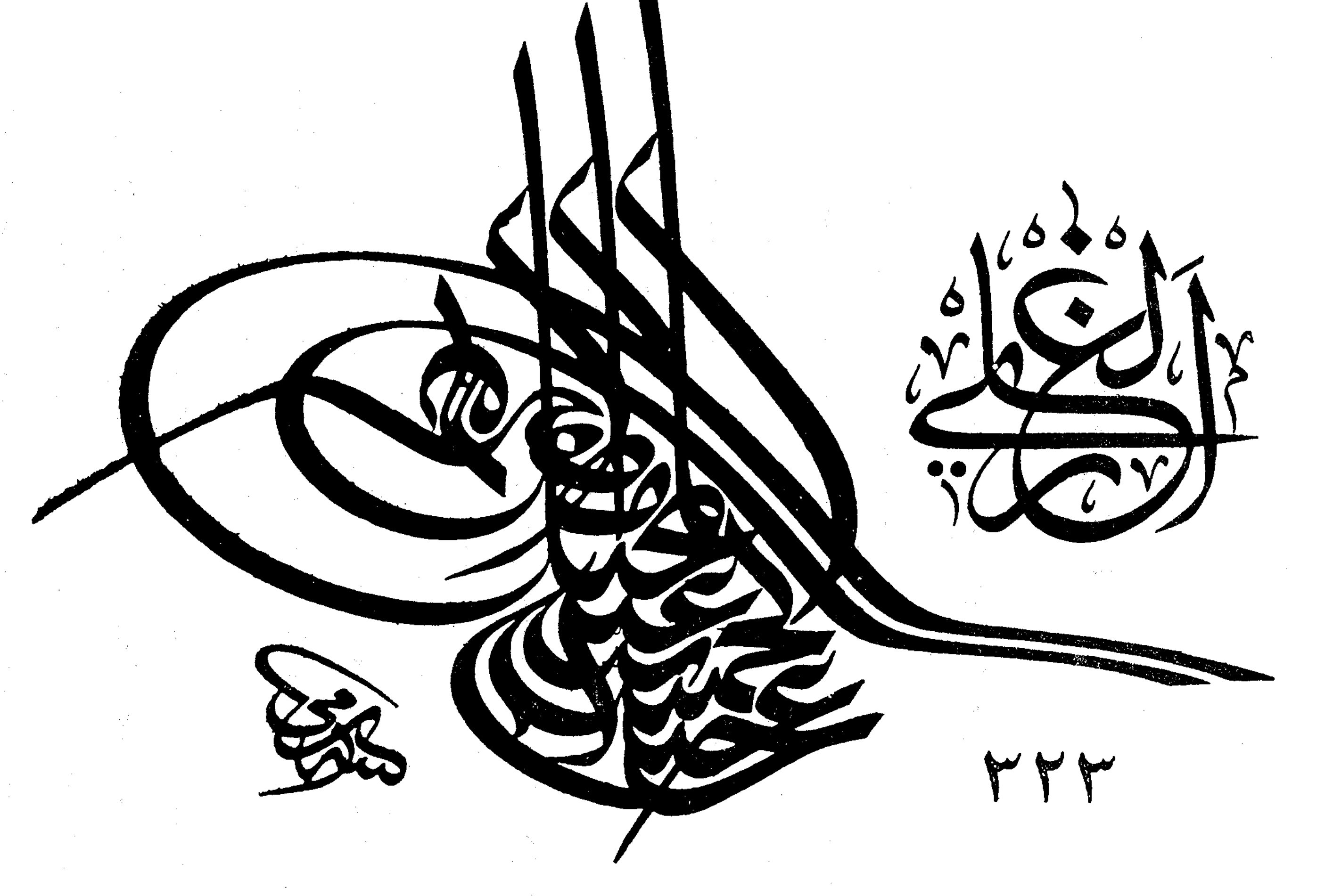
ونرى في الشكل التالي تشريح الطغراء مكتوبة بقلم حليم .



الشكل ٦٢ : تشريح الطغراء

---

* أخذ سياق هذا الكلام مشافهة خلال حديث للعالم الجليل مفتي الديار الشامية فضيلة الشيخ أبي اليسر عابدين طيب الله ثراه .



الشكل ٦٣ : طغراء السلطان عبد الحميد بخط سامي

الفصل العاشر

أعلام الخط العربي عبر التاريخ

أورد المؤرخون أسماء خطاطين لامعين كبار عبر تاريخنا العربي ، منهم من كان متميزاً في إجادة الخط ، ومنهم من أمكنه أن يضع قواعد جديدة ، وقلة قليلة استطاعت أن تضع خطوطاً جديدة فكانوا العمالقة الذين لم ينسَ التاريخ فضلهم وتكريمهم .

وهنا سنستعرض أسماء أهم أعلام الخط لنتوقف عند العمالقة منهم والذين كتب التاريخ **أسماءهم** بحروف من ذهب .

فقد كان الخطاطون في العصور الغابرة يتنافسون في إجادة الكتابة ، ويبالغون حتى درجة الإبداع في تنميق الكتب وزخرفتها وتذهيبها ، فنبغ عدد من الخطاطين منهم **مالك بن دينار** ، **وقطبة المحرر** الذي كان يُعَدُّ أكتب أهل زمانه ، فكان يكتب المصاحف لخلفاء بني أمية ، ثم أتى بعده **الضحاك بن عجلان فإسحاق بن حماد** في عهد الخليفتين العباسيين المنصور والمهدي ، والذي تلاه خطاط الخليفة المأمون **أحمد بن يوسف** .

بعد ذلك برز أول عملاق في تاريخ الخط العربي وزير الخليفة العباسي المقتدر بالله **علي بن محمد بن مقلة** ، تلاه **علي بن هلال المعروف بابن البواب** المتوفى سنة ١١٣ هـ ، والذي هذب ونمق خطوط ابن مقلة ، ففاق المتقدمين وأعجز المتأخرين ليأتي بعده حفيد ابن مقلة **أبو الحسين بن أبي علي** . كما

اشتهر أبو العباس **عبد الله بن إسحاق** بجودة الخط بين معاصريه وبحيث أصبح التفريق بين خطوطه وخطوط ابن مقلة صعباً .

وعرف في القرن السادس الهجري **عمر بن الحسن** المتوفى سنة ٥٥٢ هـ ، وفي القرن السابع عشر أبو الفضل زهير ولقبه **بهاء الدين الكاتب** المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ، وكمال الدين عمر بن أحمد العقيلي المشهور **بابن العديم** المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ، وتميَّز بالخط المنسوب ولا سيما بالنسخ .

وانتهى تجويد الخط إلى **جمال الدين المستعصمي** المتوفى سنة ٦٩٨ هـ ، الذي كتب نسخة من كتاب الشفاء لابن سينا في مجلدٍ واحد وأهداه إلى الشاه محمد طفلق ملك الهند فأنعم عليه بألف مثقالٍ من الذهب ، وليبرز بعده العملاق الثالث بعد ابن مقلة وابن البواب **ياقوت المستعصمي** الذي ختم فن الخط وأكمله وجمع قوانينه في بيت شعر فقال .

أصول وتركيب كراسي ونسبه　　　صعـود وتشمير نـزول وأرمـال

ومن معاصري ياقوت المستعصمي **عبد المؤمن صفي الدين** الذي لم يضاهه أحد في كتابة المنسوب والذي اعتمده الخليفة المعتصم خطاطاً مع **الشيخ زكي الدين** ، وقد توفي عبد المؤمن سجيناً سنة ٦٩٣ هـ .

واشتهر بإجادة الخط في القرن التاسع الهجري **أحمد بن يوسف بن محمد الدمشقي** الذي فقد يده اليمنى فراح يكتب باليسرى . كما برز خطاطون كبار مثل بعض خطاطي **آل المقدسي** الدمشقيين **كإبراهيم وخليل المقدسي** .

وفي القرن الثاني عشر هجري برز **محمد بن عبد الله الحموي** الدمشقي والذي نسخ المقامات الحريرية سنة ١١٤٨ هـ . **ومحمد الطاراني** الدمشقي الذي كان يكتب بالخطوط جميعها ومعاصره **ابن هلال الحمصي** ، **وسعدي العمري** المولود بدمشق والذي ارتحل إلى السلطان أحمد الثالث ١١١٤ـ

١١٤٣ هـ ، **وعبد الرحمن بن محمد العمري** الذي اشتهر بالخط المنسوب وخرَّج طلاباً كثيرين ، **وعبد اللطيف بن عبد القادر الزوائدي** خطيب جامع الخسروية في حلب .

وفي تركيا العثمانية نبغ خطاطون كثيرون ، فقد نبغ **الشيخ حمد الله الأماسي** المعروف بابن الشيخ والذي كان سابقاً لعصره إذ لم يكتب الخطاطون من بعده بجمال خطه ، ويحتفظ متحف توب كابي بقسم كبير من لوحاته وروائعه ، **وعبد الله الزهدي** الذي كتب كسوة الكعبة الشريفة وخط الحرم المدني بأمرٍ من السلطان عبد الحميد الثاني ، وقد أقام في مصر وعلم بالمدرسة الخديوية حتى توفي عام ١٢٩٦ هـ ، **والخطاط سامي** (إستنبول ١٢٥٣ — ١٣٣٠ هـ) الذي تفوق بخط جلي الثلث فسموه راقم الثاني ، وكان يجمع إلى جمال الخط حسن التركيب ، وقد اعتبرته جمعية الرسامين العثمانيين « أكبر خطاط أنجبته البلاد التركية » ، وأفضل تلامذته كان الخطاط محمد نظيف ، كما نبغ **إبراهيم علاء الدين** الذي ولد عام ١٢٦٠ هـ وتوفي في استنبول عام ١٣٠٥ هـ ، وقد تتلمذ على يد الخطاط **محمد شفيق** وأجاد في خطي الثلث والنسخ ، **ومحمد نظيف** الذي ولد سنة ١٢٦٢ وتوفي في استنبول عام ١٣٣١ هـ ، وكان لا يقل براعةً عن الخطاط سامي ، ومن أفضل تلامذته كان الخطاط حامد الآمدي ، وقد كان يتلاعب بأبعاد الحروف لضرورة قوة التركيب ، كما برز **مصطفى راقم** الذي قال عنه الخطاط الكبير حقي « إن مصطفى راقم بين الخطاطين عملاق لا يجارى ، فهو كميكال أنج أو رافائيل بين الرسامين » وأخوه **إسماعيل الزهدي** ، نجد أيضاً **مصطفى عزت** الذي يُعَدُّ من كبار خطاطي القرن الثالث عشر هجري والذي كتب الكثير من الكتابات السلطانية ، **ومحمد شوقي** الذي عاصر الخطاط محمد شفيق وعُرِف بكتاباته الكثيرة والمتميزة بالرقةِ والرشاقة ، **وحقي** (استنبول ١٢٩٠ —

١٣٦٥ هـ) والذي برع في رسم الطغراء وسمي بطغراقش زادة لكثرة ما كتبها وعلى نهج مصطفى الراقم ، **وأحمد كامل** الذي عُرِف برئيس الخطاطين بالرغم من أنه عاصر **عبد الله الزهدي** كاتب الحرم النبوي الشريف والذي يعتبر بحق قمة في الفن والإبداع كما تشهد آثاره ، **ومحمد أمين** الذي ولد في استنبول عام ١٣٠٠ وتوفي عام ١٣٧٢ هـ وهو من كبار الخطاطين الأتراك الأواخر ، **وماجد الزهدي** الذي استوطن بغداد والذي كان له الفضل الأكبر في إيقاظ الحركة الفنية فيها ، **ويوسف رسا** الذي استوطن دمشق وتتلمذ على يديه **ممدوح الشريف** وترك كتابات رائعة في الجامع الأموي بدمشق ، والشيخ **عبد العزيز الرفاعي** الذي ولد في طرابزون عام ١٢٨٨ هـ وهاجر لاستنبول ليتتلمذ على يدي **عارف الفلبوي** ومن ثم حصل على الإجازة في الخطوط من الخطاطين الشهيرين سامي أفندي ومحمد شوقي ثم انتدب إلى القاهرة ليخط مصحفاً للملك فؤاد الأول الذي كتبه في ستة أشهر وذهبه في ثمانية أشهر ، وآثر البقاء في مصر بعد إلغاء الحروف العربية وتبديلها بالحرف اللاتيني وليظل ممارساً لهذه المهنة الشريفة إلى أن ساءت صحته فعاد إلى استنبول إلى أن مات فيها عام ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤ .

وأخيراً كان **حامد الآمدي** آخر عمالقة القرن العشرين في سلالة الخطاطين الأتراك ، فقد ولد هذا الخطاط الكبير عام ١٣٠٨ هـ / ١٨٩١ م بديار بكر واسمه الأصلي موسى عزمي ، وبرزت موهبته من حداثة سنه لدرجة أنه تخلى عن دراسة القانون لشدة حبه للخط العربي ، وعمل أولاً في مطبعة الأركان الحربية فأوفد إلى ألمانيا للتخصص في رسم الخرائط وبعد عودته تتلمذ على أيدي كبار الخطاطين وبخاصة نظيف بك ، وافتتح لنفسه مكتباً خاصاً باسم حامد الذي عرف به ، ومن أهم آثاره كتابته مصحف شريف وكتاباته في جامع أبي أيوب الأنصاري ، وقد توفي في استنبول عام ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م

بعد أن مارس فن الخط العربي مدةً تزيد عن خمسة وسبعين عاماً حتى بلغ ما بلغ وجابت شهرته الآفاق وأمّته طلبة الخطِ العربي وأساتذته من أنحاء تركيا وسوريا والعراق واليابان فخرّج الكثيرين من أساتذة هذا الفن المعاصرين .

وفي مصر اشتهر في العصر الحديث أربعة خطاطين كبار ، هم **نجيب هواويني** وهو خطاط دمشقي الأصل ، هاجر إلى مصر حيث لمع اسمه وأصبح (خطاط ملك مصر) ، تفوق في الخط الفارسي واعتبر من مدرسة الخطاط الإيراني الشهير صاحب قلم الذي امتاز خطه بجمال انسيابه وعذوبة استداراته ، وقد عمل مدرساً للخط العربي في مدرسة تحسين الخطوط الملكية في القاهرة **وحسني البابا** وهو خطاط دمشقي أيضاً ، رحل إلى مصر حيث تفوق في أنواع الخط جميعاً وتميَّز بجلي الثلث وقد جمع بين جمال الحرف وحسن التركيب ، وتوفي في مصر في أوائل الثمانينات ، **وسيد إبراهيم** الذي يعد كبير خطاطي مصر الكلاسيكيين ، عمل معلماً للخط العربي في دار العلوم بجامعة القاهرة ومدرسة تحسين الخطوط الملكية ، وأخيراً **محمود الشحات** الذي علم الخط في مدرسة تحسين الخطوط الملكية في القاهرة .

وفي دمشق اشتهر **ممدوح الشريف** الذي تتلمذ على يد رسا وتفوق في خط الثلث وعمل مدرساً للخط في مدارس دمشق أيام العثمانيين ، **وبدوي الديراني** الذي اعتبر سيد خطاطي بلاد الشام في العصر الحديث ، فقد ولد هذا الخطاط الفذ في داريا من أعمال دمشق عام ١٣١١ هـ / ١٨٩٤ وتوفي عام ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م ، وتتلمذ على يد الخطاط الكبير يوسف رسا فتعلم منه خطوط النسخ والثلث والديواني والرقعي ، وتابع على يد ممدوح الشريف مدة سبعة عشر عاماً تعلم خلالها الكوفي والديواني الجلي واستزاد من النسخ والثلث ، مارس العمل بالخط العربي في محترفه ما يزيد عن خمسين

عاماً ، وقد برع في الخط الفارسي فأبدع فيه أيما إبداع ، إذ أنه كتب على خطوط الخطاط المرحوم صاحب قلم أفشار (صاحب القلم الذهبي) حتى تملك مدرسته ، ومن ثم تابع دراسته على أسلوب الخطاط الكبير المِفَن عماد الحسني والذي كان داهية خط التعليق ، وقارب خطه في الحسن طريقة عماد الحسني كما برع أيضاً في باقي الخطوط على مستوىً لا يقل أهمية عن الخط الفارسي . ومنح بعد وفاته رحمه الله وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى .

واشتهر من العراق الخطاط الكبير **هاشم محمد البغدادي** الذي ولد في بغداد عام ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠ م وأجيز من الخطاطين الكبار أمثال حسني البابا ثم سيد إبراهيم وأخيراً حط رحاله في استنبول ونال إجازته الأخيرة من الخطاط حامد الآمدي الذي قال فيه : « إن الخط بدأ بدار السلام ثم عاد إلى دار السلام بك يا هاشم » . وقد أجاد الخطاط هاشم في الثلث بصورة خاصة وعمل أستاذاً في معهد الفنون الجميلة ببغداد وتوفي عام ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م .

وفي لبنان برز عدد من الخطاطين منهم **برهان كبارة** الذي اختص بالخط الكوفي،والخطاط **أديب نشابة** الذي برع في تقليد أسلوب الخطاط الدمشقي ممدوح الشريف بخط الثلث،والخطاط **نسيب مكارم** الذي تميَّز بأعمال لم يسبقه إليها أحد ، منها كتابته على فصوص الخواتم ورسم خرائط بعض البلدان والكتابة على القمح والأرز والبيض ، وآثاره موجودة في قصر العظم بمدينة دمشق لتشهد على صبره ودقته وفنه .

وكما نلاحظ فإن الأسماء التي وردت وعلى كثرتها فإنها تشكل بعضاً من كل ، إذ أن أسماء كثيرة قد يكون حظها مع التاريخ قليلاً أو أن آثارهم زالت بزوالهم أو .. ، ومع ذلك فإنه نظراً للمكانة التاريخية لعمالقة الخط العربي

ابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصمي فإننا سنلقي على حياتهم بعض الضوء بما يستحقون كمؤسسين حقيقيين للخط العربي .

عمالقة الخط العربي

١ ـ الوزير ابن مقلة

أخذ الوزير أبو علي محمد بن مقلة المتوفى عام ٣٢٨ هـ الخط عن الأحول المحرر ، وانتهت إليه رئاسة الخط العربي في عصره ، بذل الكثير لمتابعة ما بدأ به قطبة المحرر من تجويد وتحسين ، فهو أول من هندس الحروف وقدر مقاييسها وأبعادها بالنقط وضبطها ضبطاً محكماً فسمي خطه هذا بالخط المنسوب ، وأجاد خطاً سمي بخط الدرج . وفي مخطوطته (رسالة علم الخط والكتابة) اعتمد أن يكون حرف الألف قطراً للدائرة التي تبنى عليها جميع أقواس الحروف الأبجدية المقروءة قبل تركيبها .

ومما قاله ابن مقلة عن خطوط عصره وما قبل عصره « الخط أجناس قد كان الناس يعرفونها ويعلمونها أولادهم ، ثم تركوا ذلك وزهدوا فيه كزهدهم في سائر العلوم والصناعات ، وكان أكثرها وأجلها قلم الثلثين ، وهو الذي كانت السجلات تكتب به فيما يقطعه الأئمة ، وكان يسمى قلم السجلات ، ثم ثقيل الطومار والشامي وكانت تكتب بهما في القديم ملوك بني أمية ... » .

وبرغم كل فضائله على الخط العربي ومكانته العالية كوزير لثلاثة من الخلفاء العباسيين وهم المقتدر بالله والقاهر بالله والراضي بالله ، فإن نهايته كانت أبشع من أن يحتملها عقل ، فقد وشى به حاجب بن رائق للراضي

بالله فقطع يده اليمنى فقال : يد خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين تقطع كما تقطع أيدي اللصوص ، وقال :

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً   فإن البعض من بعض قريب

فقُطع لسانه بعدها وحُبس وظل في السجن حتى أسلم الروح إلى بارئها

وقد قيل في خط ابن مقلة الكثير ، فقد أنشد الشاعر أبو عبيد البحتري في خطه :

سقى الله عيشاً مضى وانقضى   بلا رجعةٍ أرتجيها ونقلة
كوجه الحبيب وقلب الأديب   وشعر الوليد بخط ابن مقلة

وقال الصاحب إسماعيل بن عباد :

خط الوزير ابن مقلة   بستان قلب ومقلة

وأورد أبو حيان التوحيدي في رسالته « علم الكتابة » ما قاله ابن الزنجي : « أصلح الخطوط وأجمعها لأكثر الشروط ما عليه أصحابنا في العراق ، فقيل له ما تقول في خط ابن مقلة ؟ قال : ذاك نبي فيه ، أفرغ الخط في يده كما أوحى إلى النحل في تسديس بيوته » .

وقال الثعالبي فيه : « خط ابن مقلة يضرب مثلاً في الحسن ، لأنه أحسن خطوط الدنيا ، وما رأى الراؤون مثله في ارتفاعه من الوصف وجريه مجرى السحر » .

٢ ـ ابن البواب

أخذ علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب الخط عن السمسماني وابن أسد أبو الحسن في أوائل القرن الخامس الهجري ، وكان من حفظة القرآن الكريم ، عمل مزوِّقاً للبيوت ودهاناً في شبابه ، ثم صور الكتب

واحترف الكتابة ، توفي عام ٤١٣ هـ ودفن بجوار الإمام أحمد بن حنبل حسب رواية ابن خلكان في وفيات الأعيان بعد ما كتب ٦٤ مصحفاً في حياته أحدها مصحف بخط الريحاني أهداه السلطان سليم الأول إلى جامع لالا في استنبول .

وقد قيل في خط ابن البواب الكثير نذكر منه ما قاله أبو حيان التوحيدي في رسالة الكتابة المنسوبة ، وهو ممن عاصروا ابن البواب « أما الشيخ ابن البواب فوجد الناس قد اجتهدوا قبله في إصلاح الكوفي وأقبلوا على ترطيب الكتابة للسر الخفي وهو حب النفس للرطوبة لأنها مادة الحياة ، وهي لمرونة الخط وريه ، وألا ترى من الخارج زواياه ، وكانت أسباب هذه الصناعة قد كملها الله له بأسرها ... فرأى ابن مقلة أنهما قد أتقنا قلمي التوقيعات والنسخ ، لكن لم يرسخا رحمهما الله إتقانهما ذلك الرسخ ، فكمل معناهما وتممه .. وجد شيخه ابن أسد يكتب الشعر بنسخ قريب من المحقق فأحكمه ، وحرر قلم الذهب وأتقنه ، ووشى برد الحواشي وزينه ، ثم برع في الثلث وخفيفه ، وأبدع في الرقاع والريحان وتلطيفه ، وميز قلم المتن والمصاحف ، وكتب بالكوفي فأنسى القرن السالف » .

هذب ونمق ابن البواب خطوط ابن مقلة دون أن يُدْخِل شيئاً على قواعدها ، وبرع بخطوط الثلث وخفيف الثلث والرقاع والريحاني والكوفي ، وأنشأ مدرسة للخط استمرت حتى عهد قبلة الكتاب ياقوت المستعصمي ، واخترع خط المحقق وأتقن خطوط النرجس والمنثور والمرصع واللؤلؤي والحواشي والمقترن والقصص .

ترك ابن البواب قصيدته الرائية الشهيرة عن تقنية الخط الجميل فقال :

يا من يريد إجادة التحرير ويروم حسن الخط والتصوير

إن كان عزمك في الكتابة صادقاً فارغب إلى مولاك في التيسير
أعدد من الأقلام كل مثقف صلب يصوغ صناعة التحبير
وإذا عمدت لبريه ، فتوخه عند القياس بأوسط التقدير
انظر إلى طرفيه ، فاجعل بريه من جانب التدقيق والتحضير
واجعل لجلفته قواماً عادلاً يخلو عن التطويل والتقصير
والشق وسطه ليبقى بريه من جانبيه مشاكل التقدير
حتى إذا أتقنت ذلك كله إتقان طب بالمواد خبير
فاصرف لرأس القط عزمك كله فالقط فيه جملة التدبير
لا تطمعن في أن أبوح بسره إني أضن بسره المستور
لكن جملة ما أقول بأنه ما بين تحريف إلى تدوير
والق دواتك بالدخان مدبراً بالخل أو بالحصرم المعصور
واضف إليه مغرةً قد حولت مع أصفر الزرنيخ والكافور
حتى إذا ما خمرت فاعمد إلى الورق النقي الناعم المخبور
فاكبسه بعد القطع بالمعصار كي ينأى عن التشعيث والتغيير
ثم اجعل التمثيل دأبك صابراً ما أدرك المأمول مثل صبور
ابدأ به في اللوح منتضياً له عزماً تجرده عن التشمير
لا تخجلن من الرديء تخطه في أول التمثيل والتسطير
فالأمر يصعب ثم يصبح هيناً ولرب سهل جاء بعد عسير
حتى إذا أدركت ما أمّلته أضحيت رب مسرةٍ وحبور
فاشكر إلهك واتبع رضوانه إن الإله يحب كل شكور
وارغب لكفك أن تخط بنانها خيراً تخلفه بدار غرور
فجميع فعل المرء يلقاه غداً عند التقاء كتابه المنشور

٣ ـ ياقوت المستعصمي

ياقوت بن عبد الله المستعصمي ، مولى الخليفة المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس والذي قتله هولاكو خان عند زحفه على بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، كان رومياً ، اشتراه الخليفة المستعصم وهو ابن خمسة عشر ربيعاً تقريباً ، ورباه في دار الخلافة ، وبعد مقتل الخليفة المستعصم عين هولاكو علاء الدين الجويني على جميع العراق وجعله رئيس ديوان الممالك ، وكان لياقوت حظوة عند علاء الدين فكتب عليه الخط وأولاده وابن أخيه شرف الدين هارون ، فعاش حياة عز وسعادة وعُيِّنَ خازناً في دار الكتب المستنصرية .

كُني بأبي الدر وتوفي عن عمر يقارب السبعين عاماً ، أحب الأدب ونظم الشعر ومهر بالخط حتى سمّي بقبلة الكتّاب أو قبلة الخطاطين ، أخذ الخط عن صفي الدين عبد المؤمن ثم كتب على الشيخ ابن حبيب ، وقال عنه الذهبي في تاريخ الإسلام : « ياقوت المستعصمي المجود ، صاحب الخط المنسوب ، رومي الجنس نشأ بدار الخلافة ، وأحب الكتابة والأدب ... وحصّل خطوطاً منسوبة لابن البواب وغيره كان يعرفها بخزانة الخلفاء فجوّد عليها ، وعني بذلك عناية لا مزيد عليها ، وقويت يده ، وركبت أسلوباً غريباً في غاية القوة ، وصار إماماً يقتدى به ... كتّب أولاد الأكابر ، وكتب بخطه الكثير » .

وقد سار على طريقة ابن البواب وجوّد عليها ، وأهم ما ميزه هو القطة التي اختارها للقلم إذ أنه اختار قطة محرفة ابتدعها هو وسار عليها الكثير من الخطاطين . أما عن الخطوط التي كتبها ، فإنه كتب بالخط النسخ والريحاني والثلث والرقاع والمحقق والأشعار والكوفي ، وبلغ في بعضها مرتبة تفوق مرتبة الشيخ ابن البواب ، ومن بعده جاء بعض الخطاطين الدماشقة والمصريين والعثمانيين فحسنوا طريقته وأبدعوا فيها .

الفصل الحادي عشر

المواد التي كان العرب يكتبون عليها

اعتمد العرب في الجاهلية والإسلام الكثير من المواد للكتابة ، تنوعت حسب الغرض والحاجة والموجود ، فقد كتبوا على الجلد والقماش والحجارة والعظام والورق والخشب والفخار وسعف النخيل والمعادن والبردي ... ، فللرسائل كتبوا على الجلد والورق مثلاً ... ولشواهد القبور كتبوا على الحجر كما في نقش النمارة الذي وضع فوق قبر امرىء القيس في الجاهلية .. ، وسنتناول هنا للاطلاع مادة إثر أخرى .

١ ـ **الجلد** : وكانت له ثلاثة أنواع : فمنه الرق وهو جلد صغار العجول والحملان والجداء والغزلان ، ومنه الأديم وهو الجلد الأحمر أو المدبوغ ، ومنه القضيم : وهو الجلد الأبيض .

وكانت الرقوق مستعملة قبل الإسلام ، ثم اتخذت في صدر الإسلام ، بيد أن ثمنها الغالي حَدَّ من استعمالها وحصره في نسخ القرآن والوثائق الرسمية والعقود .. ، وكان يصنعون الرق بغسل الجلود وكشطها ثم دعكها بحجر الخفاف حتى تصبح ناعمة الملمس لتُحَكُّ أخيراً بالطباشير فتصير بيضاء اللون وتستحيل مادةً صالحة للكتابة ، متينة ، جميلة وبخاصة من الوجه الداخلي وإن كان الوجه الخارجي يحتفظ بالمداد أكثر فإن اسمراره بعض الشيء قد أبعد الناس عن الكتابة عليه نوعاً ما . وقد ورد ذكر الرق في القرآن الكريم في

سورة الطور : ﴿ والطور وكتاب مسطور في رقٍّ منشور ﴾ .

أما الأديم فقد عرفه العرب في الجاهلية ، وكتبوا عليه الوحي في زمن رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، فقد قال سيدنا عثمان : « فأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به ، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن » .

والقضيم أخيراً وكما ذكرنا هو الجلد الأبيض ، وقد ورد أن الوحي كان يكتب في عهد رسول الله على القضيم ، قال الزهري : « قبض رسول الله ﷺ والقرآن في العسب والقضيم والكرانيف » .

وقد انتشرت دباغة الجلود انتشاراً واسعاً جنوبي الجزيرة العربية ولا سيما حينما بدأ الفرس يبنون المدابغ في اليمن أيام كانوا يحكمون جنوبي الجزيرة العربية بعد عام ٥٧٠ م ، وعرفت الطائف ونجران وصفد وجرش وصنعاء وزبيد بصناعة الجلد والتي كانت تصدر بكميات كبيرة ، واشتهر جلد هذه المدن برقته ونعومته .

٢ ــ **القماش** : وقد يكون حريراً أو قطناً أو كتاناً ، وتسمى الصحيفة من القماش المهرق وجمعها مهارق ، وقد استعمل العرب الكتان في كتاباتهم منذ عهد بني أمية بدمشق وأطلقوا عليها اسم خراساني ، وعلى ما يبدو أنها كانت غالية الثمن لكونها تحتاج إلى إعدادٍ خاص ، فكانت لا تستخدم إلا في الأمور الجليلة لغلاء ثمنها ، فقد أورد الجاحظ في كتابه « الحيوان » : « لا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان » .

٣ ــ **الحجارة واللخاف** : إن أقدم ما وجد مكتوباً على الحجارة بالعربية كانت نقوش أم الجمال والنمارة وزبد و ... إضافة لما كتب على شواهد

القبور ، أما اللخاف فهي الحجارة الرقيقة البيضاء ، ومفردها لخفة ، وقد كتبت بعض آيات القرآن في زمن الرسول ﷺ على اللخاف ، قال زيد ابن ثابت حينما أمره سيدنا أبو بكر أن يجمع القرآن : « فجعلت أتتبعه عن الرقاع والعسب واللخاف » .

٤ ــ **العظام** : وأكثرها تداولاً كان لوح الكتف والأضلاع ، وكان يكتب عليها الوحي ، قال زيد بن ثابت لما نزلت الآية : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين ... ﴾ دعا رسول الله ﷺ بالكتف ودعاني وقال : اكتب . وقد استمر الاعتماد على العظام كمادة للكتابة حتى العصر العباسي الأول (النصف الأخير من القرن الثاني للهجرة) .

٥ ــ **الخشب** : ومنه الأقتاب ومفردها قُتَب أو قِتْب وهو الإكاف الصغير على قدر سنم البعير ، وقد قال زيد بن ثابت : « فاتبعت أجمع القرآن من الرقاع والأكتاف والأقتاب ... » .

وأيضاً نجد من الخشب الرحل ، قال سعيد بن جبير : « كنت أسمع عن ابن عمر وابن عباس الحديث بالليل فأكتبه في واسطة رحلي حتى أصبح فأنسخه » .

ومنه نجد أيضاً اللوح الذي ما زال منتشر الاستخدام حتى هذه الأيام .

٦ ــ **العيسب** : وجمعه عسب ، وهو السعفة أو جريدة النخل بعد تجفيفها وكشط خواصها ، ونجد أيضاً الكرنافة وجمعها كرانيف وهي أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع ، وقد ورد أن الوحي كان يكتب في عهد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على العسب والكرانيف .

٧ ــ **الفخار** : وهو الطين المشوي وقد اعتمد عليه العرب في الكتابة أحياناً .

٨ ــ **المعادن** : وبخاصة على السيوف والحلي والصكوك والأواني المصنوعة من الحديد والبرونز والنحاس والفضة والذهب .

٩ ــ **البردي** : وهو نبات ينبت في جنوب مصر على هيئة ساق جميل ينتهي بخيمة زهرية ذات حوامل طويلة تنتهي بسبيلات تنضم على هيئة سنبلة واحدة تزهر طوال العام إلا في الشتاء ، وهذه الساق مثلثة جوفاء .

وكانت تصنع أوراق البردي بنقع سيقانه بالماء لتنعم ، ثم تنزع عنها القشرة الخضراء ويبقى اللب الداخلي الناعم فيقطع قطعاً طويلة رقيقة بسكين حادة ، وترتب هذه القطع حسب الحجم والنوع ، وتجمع إلى جوار بعضها بعضاً على لوح رطب لتغطى بطبقة أخرى من القطع متعامدة عليها ، ويضغط عليهما حتى تلتصقا ببعضهما لوجود مادة لاصقة في اللب ، وتشكل القطع بعد ذلك وتترك في الشمس لتجف ، وأخيراً يصار إلى حكها بقطعةٍ من عاج أو محارة أو مطرقة ، وأحياناً يطلى سطحها بمادة لاصقة ، وتضم القطع واحدة إلى الأخرى لتلتصق عند رؤوسها بعجين الدقيق لتكون أدراجاً يسهل تداولها ولتباع بالتجزئة ، وكان يباع باسم قراطيس أو طوامير .

وقد عرف العرب البردي في الجاهلية إلا أنه لم يثبت أنهم استخدموه قبل دخولهم مصر في السنة الثامنة للهجرة ، على أن أقدم بردية قرئت تعود للسنة الثانية والعشرين للهجرة . ويبلغ عدد البرديات المكتشفة إلى الآن والمكتوبة باللغة العربية في العالم بحدود ستة عشر ألف بردية ، منها خمسة آلاف تحتفظ بها مصر والباقي في شتى متاحف العالم .

وظل استعمال البردي قائماً في العراق مدة طويلة بعد الفتح الإسلامي إلى أن غلا ثمنه وظهر الورق وانتشر . على الرغم من أن المعتصم قد نقل بعض عاملي البردي من مصر إلى سامراء ليصنعوه فصنعوه ولكن بجودة لم

تكن تضاهي جودة بردي مصر .

١٠ ـ **الورق** : للورق حكاية طويلة لكونه فاق مواد الكتابة كلها رواجاً وثمناً واحتمالاً و ... فتنافست على صناعته المدن والدون الإسلامية جميعها إلى جانب تشجيع بعض أولي الأمر من حكام ووزراء على صناعته .

وكان من اخترع الورق هو (تسي لن) الصيني سنة ١٠٥ م من الخرق وحبال الصيد والقنب ، وبعد خمسين عاماً اقتصرت صناعته على الخرق فقط ، وقد ذكر ابن النديم في الفهرست أن الورق الصيني كان يصنع من الحشيش .

ويروى بأنه عندما قام زياد بن صالح حاكم سمرقند عام ١٣٣ هـ بغزوة ضد إخشيد فرغانة الذي كان يؤازره أمبراطور الصين على نهر تراز وانتصر المسلمون فيها فأسروا عشرين ألفاً ، جاؤوا بهم إلى سمرقند وكان بينهم صناع ورق فأخذت سمرقند منذ ذلك التاريخ تنتج الورق وتصدره باسم ورق سمرقند أو خراسان . وأقدم ورقة وجدت مكتوبة عليه تلك التي في مجموعة فيينا والتي يعود تاريخها إلى ما بين سنتي ١٨٠ ـ ٢٠٠ هـ .

وذكر ابن النديم في « الفهرست » والمتوفى سنة ٤٣٨ هـ ستة أنواع من الورق كانت معروفة في عصره وهي الورق الخراساني ، وكان يصنع من الكتان ، ويقال أنه قد تمت صناعته أيام بني أمية ، كما قيل أن صناعاً من الصين عملوه بخراسان على طريقة الورق الصيني ، ولهذا الورق أنواع ستة وهي : السليماني المنسوب لسليمان بن راشد والي خراسان أيام هارون الرشيد ، والطلحي المنسوب لطلحة بن طاهر ثاني أمراء الدولة الطاهرية في خراسان ، والنوحي نسبة إلى نوح الساماني أحد أمراء الدولة السامانية التي حكمت تركستان وفارس ، والفرعوني الذي كان آخر منافسٍ للبردي ، والجعفري المنسوب إلى جعفر البرمكي ، والطاهري المنسوب إلى طاهر الثاني

من آمراء الدولة الطاهرية في خراسان والذي كان حكمه بين ٢٣٠ — ٢٤٨ هـ . إضافة لأنواع أخرى كالجيهاني نسبة إلى مدينة جيهان إحدى مدن خراسان ، والمأموني نسبة للمأمون ، والكاغد المنصوري نسبة لأبي الفضل منصور بن نصر بن عبد الرحيم الكاغدي المتوفى بسمرقند عام ٤٢٣ هـ . وقد كانت للورق المنصوري هذا شهرة بعيدة حتى أنه صار يصنع في العراق ومصر .

وعمت شهرة الورق السمرقندي الآفاق وتسربت طريقة صناعته لبعض البلدان الإسلامية كبغداد التي عمل فيها الفضل بن يحيى البرمكي من أعيان وزراء بني العباس على تحسين صناعة الورق وازدهارها .

وبعد بضع سنين صار أخوه جعفر بن يحيى البرمكي في الوزارة ، فأمر باعتماد الورق ومنع تداول الرق وما نحوها لكونها تقبل المحو والتزوير ، مما دفع بصناعة الورق في بغداد دفعاً عظيماً في القرن الرابع الهجري بما كان يرى فيها من معامل لصناعة الورق ومتاجر لتتاجر به .

وكان الورق البغدادي من أنفس وأغلى أجناس الورق ، فهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزائه وقطعه الوافرة . وكان غالباً ما يستخدم لكتابة المصحف الشريف .

وانتقلت بعد ذلك صناعة الورق إلى بلاد الشام بحيث أمست طرابلس الشام من عيون المدن التي فاقت غيرها في صناعته ، وكذلك دمشق التي اشتهرت بمعامل ورقها اشتهاراً بعيداً وأطرى الباحثون على جودته ومحاسنه بحيث أصبحت تجارته رائجة رواجاً عظيماً . واشتهرت أيضاً طبرية وحلب التي تميزت بورق صقيل متين ، وحماة ومنبج .

أما في مصر فقد عُدَّ الورق المصري دون العراقي والشامي رتبة ، وكان

له قَطعان ؛ القطع المنصوري وقطع العادة ، والمنصوري أكبر وقلما يصقل وجهاه ، في حين أن قطع العادة قد يُصْقل وجهاه ويسمى آنئذٍ بالمصلوح ، وعند بعضهم على رتبتين عالٍ ووسط . وهناك صنف اسمه القوي ، صغير القطع ، خشن غليظ ، لا ينفع للكتابة ، يتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك .

وانتقلت صناعة الورق للغرب ، فصار يصنع في صقلية ومراكش والأندلس ، وقد كانت أشهر مدن الأندلس في صناعة الورق مدينة شاطبة شرقي قرطبة .

وأخيراً نجد أن من أشهر بلاد فارس التي عرِفت بجودة ورقها بلدة خونج (أو خونة) وهي على مسيرة يومين من زنجان .

الفصل الثاني عشر

أدوات الكتابة

للكتابة أدوات كثيرة نذكر منها :

١ ــ **القلم** : ويسمى أحياناً المزبر ، قال تعالى : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ ، وأرجح الأقوال عن تسميته بالقلم أنه مأخوذ من شجر القلام وهو شجر رخو ، فلما ضارعه القلم في الضعف سمي قلماً ، وقيل سمي قلماً لقلم رأسه وقبل ذلك يكون قصبة . وعلى هذا فإن للقلم أقسام في تسميته وهي : القصبة وتغلفها القشرة وتحت القشرة الشحمة ، وعند بري القلم تتم فتحة ، فتشكل ما يسمى البطن ، وفي طرفي البطن الحواشي ، ورأس القلم الجلفة ، وتنتهي بالقطة وطرفا القطة يسميان السنان . وللقلم أنواع حسب نوع القصب وهي : الفارسي والبحري والنبطي .

ويستعرض أبو حيان ما قاله إبراهيم بن العباس مخاطباً غلاماً بين يديه : « ليكن قلمك صلباً بين الدقة والغلظ ، ولا تبره عند عقدة ، فإن فيه تعقيد الأمور ، ولا تكتب بقلم ملتوٍ ، ولا ذي شقٍ غير مستوٍ ، فإن أعوزك الفارسي والبحري ، واضطررت إلى الأقلام النبطية ، فاختر منها ما يضرب إلى السمرة ، واجعل سكينك أحد من الموسى ، ولا تبر به غير القلم وتعهده بالإصلاح ، وليكن مقطك أصلب الخشب لتخرج القطة مستوية ، وابر قلمك

إلى الاستواء لإشباع الحروف ، وإذا أجللت فإلى التحريف ، وأجود الخط أبينه ، وأجود القراءة أبينها » .

٢ ــ **المداد والحبر** : ولقد سمي المداد مداداً لأنه يمد القلم ، في حين أن الحبر يعني اللون ، وقد اعتاد الخطاطون صنع أحبارهم بأنفسهم ، وكانت تدخل في صناعة الحبر مواد كثيرة منها : العفص ، الزاج ، الصمغ العربي ، سخام النفط ، الماء ، الملح ، العسل ، الكافور ، الصبر ، الشب الأبيض .

وقد مرَّ معنا تركيب لحبر نصح به ابن البواب في قصيدته الرائية ، ونستعرض هنا نصيحة أبي علي بن مقلة الخطاط الوزير إذ قال : « تنخل وتصفى ثلاثة أرطال من سخام النفط ، ثم توضع في قدر تسعة أرطال من الماء ورطل من العسل ، وخمسة عشر درهماً من الملح وخمسة عشر درهماً من الصمغ العربي ، وعشرة دراهم من عفص مطحون ، ويترك على نار هادئة حتى يتكاثف كالطحين ، فيوضع في القناني ، وبعد ذلك تؤخذ كمية قليلة منه عندما يراد الخط به ويمزج مع الماء حسب الحاجة ، ويمكن أن يضاف إليه الكافور لتطييب رائحته ، والصبر لمنع وقوف الذباب عليه » .

٣ ــ **الدواة** : وكانت تصنع من النحاس الأصفر والفولاذ والخشب .

٤ ــ **المقلمة** : وهي مكان وضع الأقلام .

٥ ــ **المدية** : وهي السكين التي يبرى بها القلم ويُقَطّ .

٦ ــ **المقطّ** : وهو عود صلب وسطح يقط عليه القلم .

٧ ــ **المحبرة** : وتتألف من الجونة التي هي الظرف الحاوي على الليقة والحبر ، أما الليقة فهي بعض الحرير أو الصوف أو القطن . والحرير أحسنها لأنه أكثر تحملاً وأقل تلبداً فهو أيسر للكتابة .

٨ ـ **المنشأة** : ظرف لحفظ المواد اللاصقة كالنشاء والكتيرة .

٩ ـ **المنفذ** : أداة تشبه المخرز تتخذ لحزم الورق .

١٠ ـ **المهرق** : القرطاس الذي يكتب عليه .

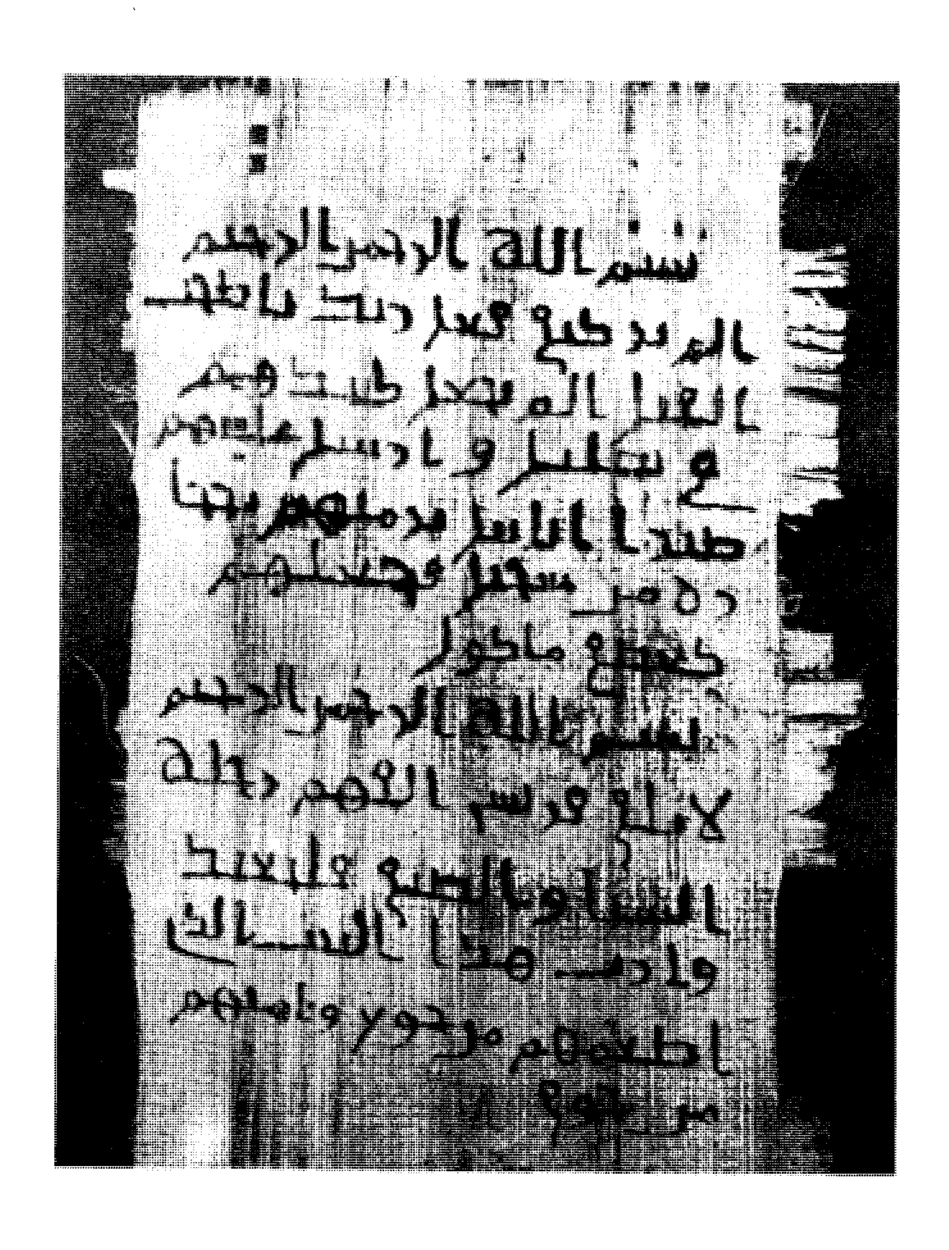
١١ ـ **المصقلة** : أداة لصقل الذهب بعد الكتابة .

١٢ ـ **المسقاة** : آلة لصب الماء في المحبرة وتسمى الماوردية .

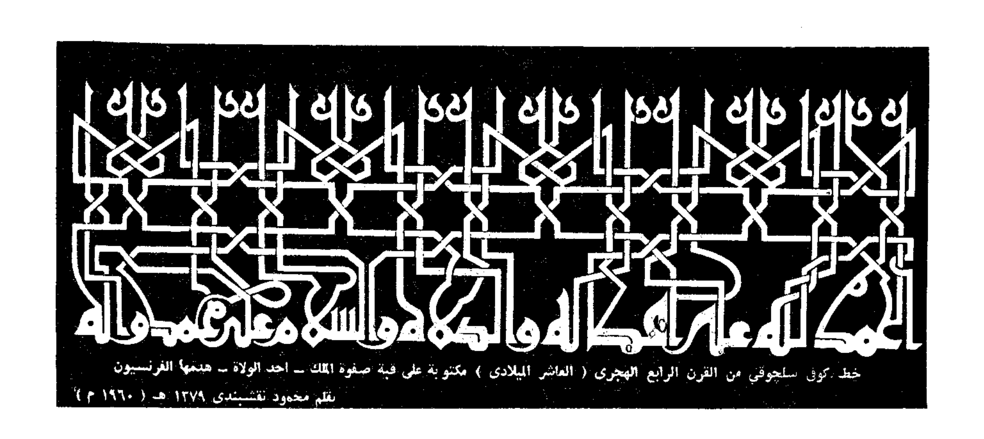
١٣ ـ **المفرشة** : خرق كتان تفرش تحت الأقلام والدواة .

١٤ ـ **الملزمة** : آلة تركب على رأس الدرج لمنعه من الرجوع على الكاتب .

ملحق الأشكال

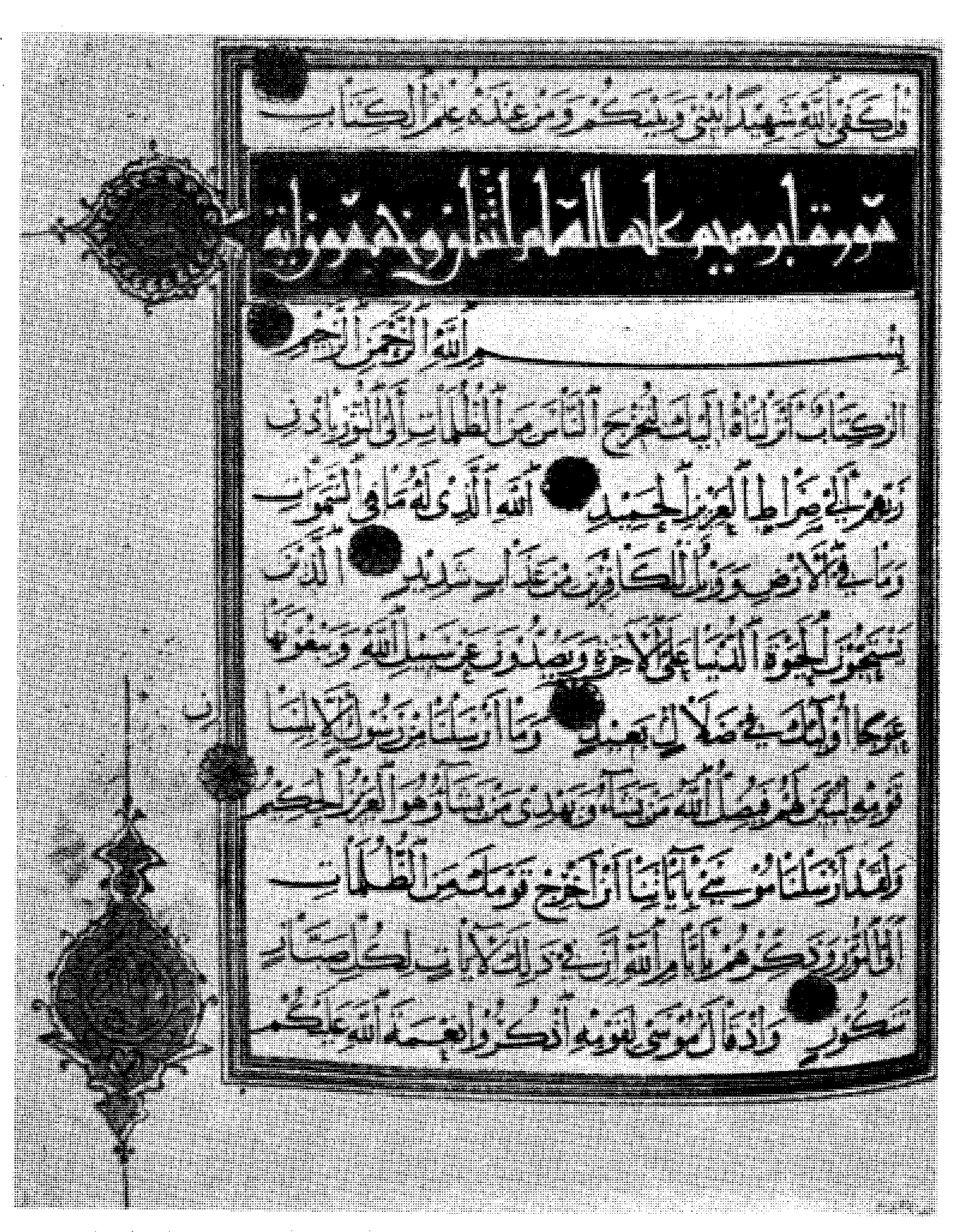


سورتا الفيل وقريش على سعف النخيل



خط كوفي سلجوقي من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مكتوبة على قبة صفوة الملك ـ احد الولاة ـ هدمها الفرنسيون
بقلم محمود نقشبندى ١٣٧٩ هـ (١٩٦٠ م)

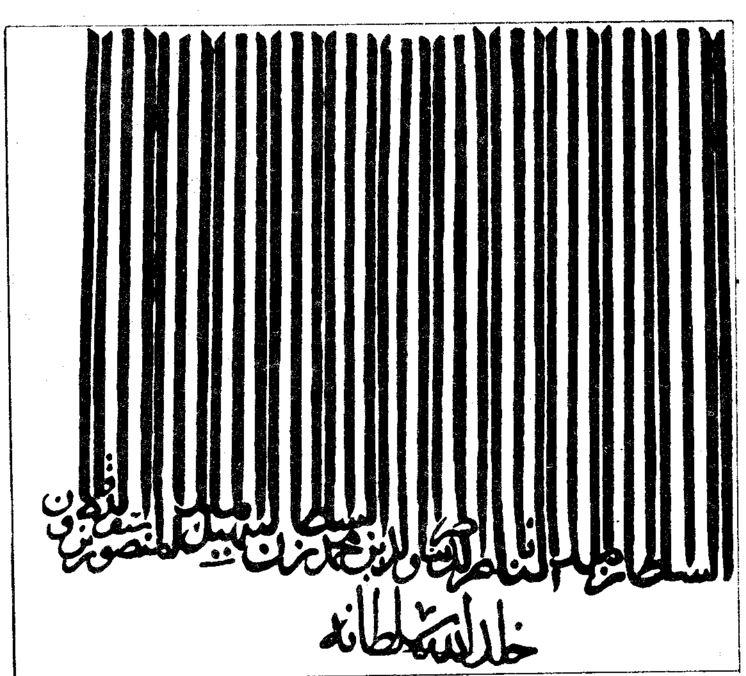
الخط الكوفي المغربي (القيروان)


وكفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب

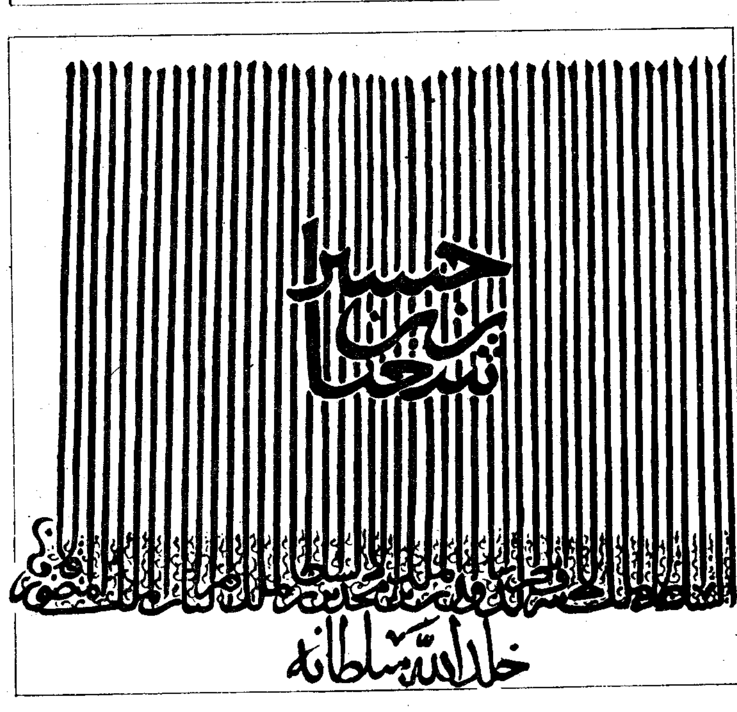
بسم الله الرحمن الرحيم

الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن
ربهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات
وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد الذين
يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها
عوجا أولئك في ضلال بعيد وما أرسلنا من رسول إلا بلسان
قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم
ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات
إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار
شكور وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم

صفحة من قرآن بخط ياقوت المستعصمي بالخط الريحاني والكوفي ـ متحف طهران



الطغراء المملوكية :
السلطان الملك الناصر
للدنيا والدين محمد بن
السلطان الشهيد الملك
المنصور سيف الله قلاوون



الطغراء المملوكية :
السلطان الأشرف ناصر
الدنيا والدين الملك
الأمجد بن الملك الناصر
ابن الملك المنصور قلاوون



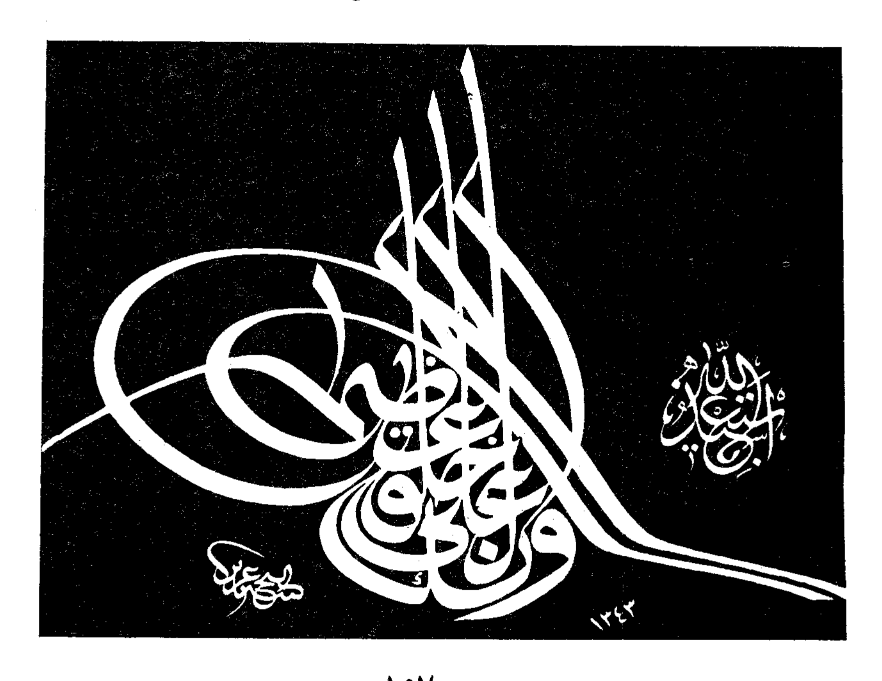
طغراء السلطان (مصطفى خان بن أحمد المظفر دائماً)

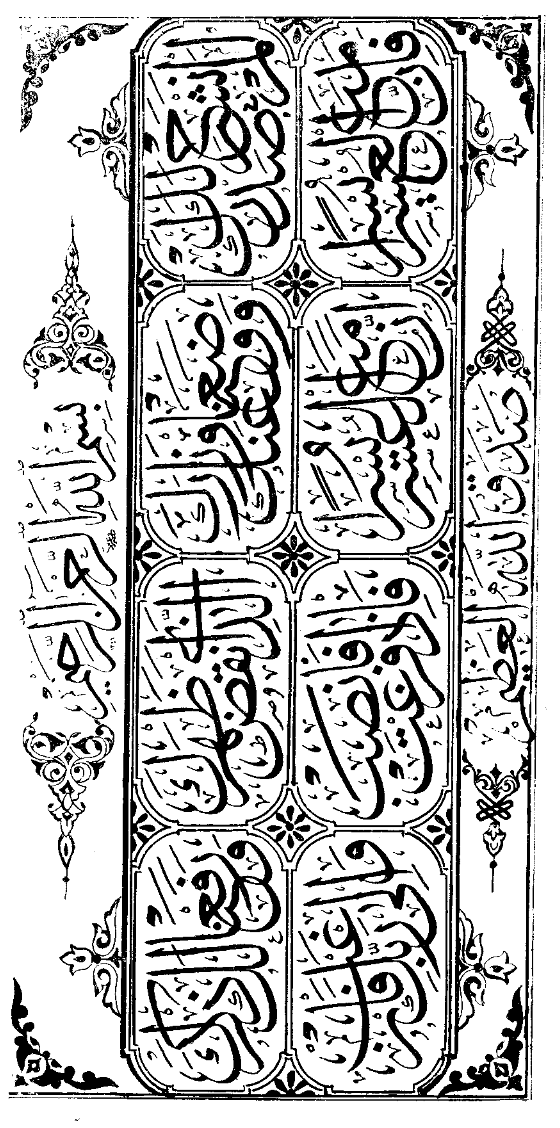


شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي



طغراء السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد








بسم الله الرحمن الرحيم


والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم

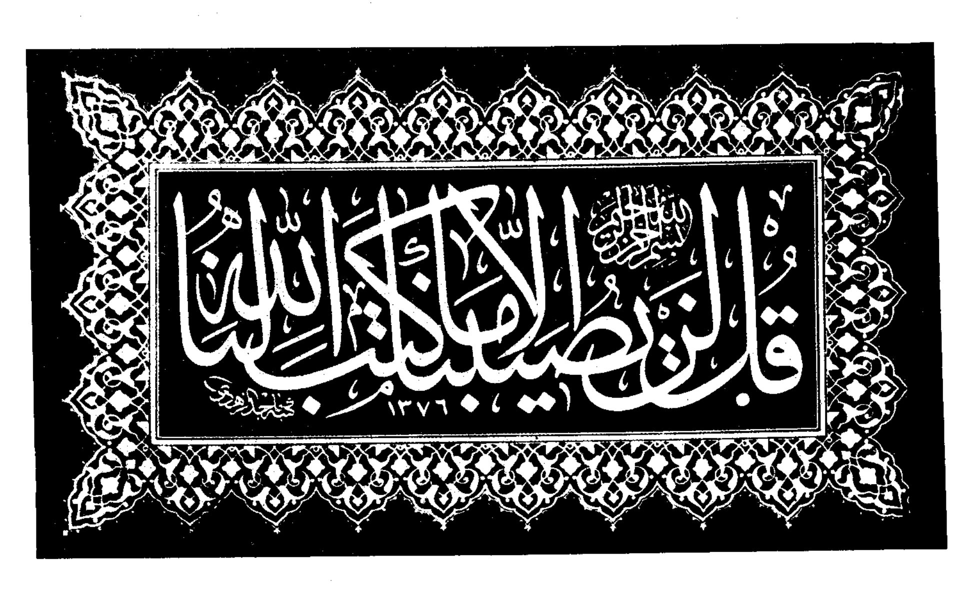


ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

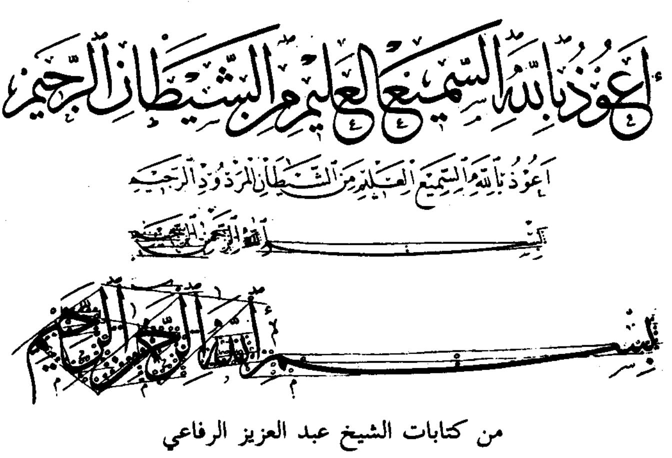
ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين


بسم الله الرحمن الرحيم


إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين


بسم الله الرحمن الرحيم
قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا
١٣٧٦



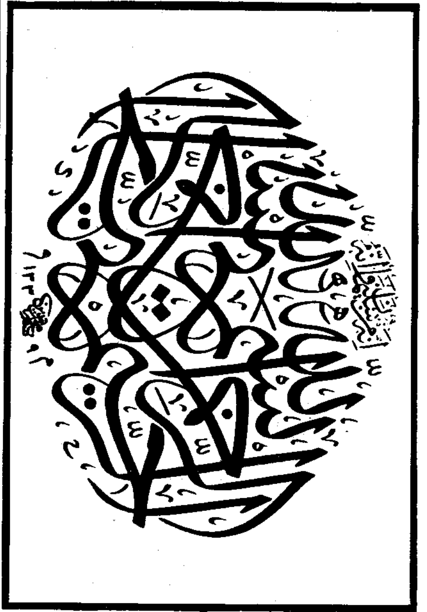


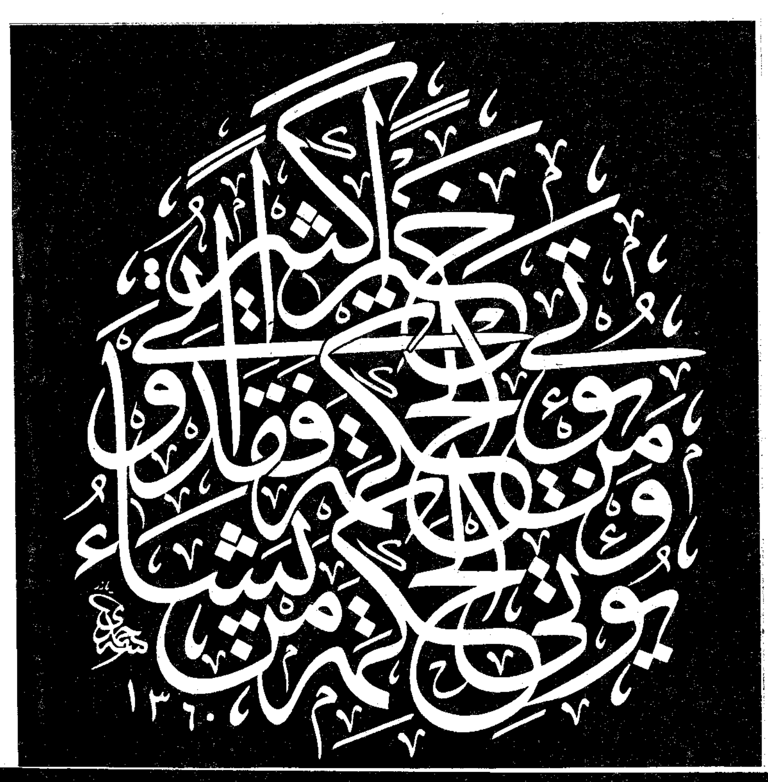
من كتابات الشيخ عبد العزيز الرفاعي

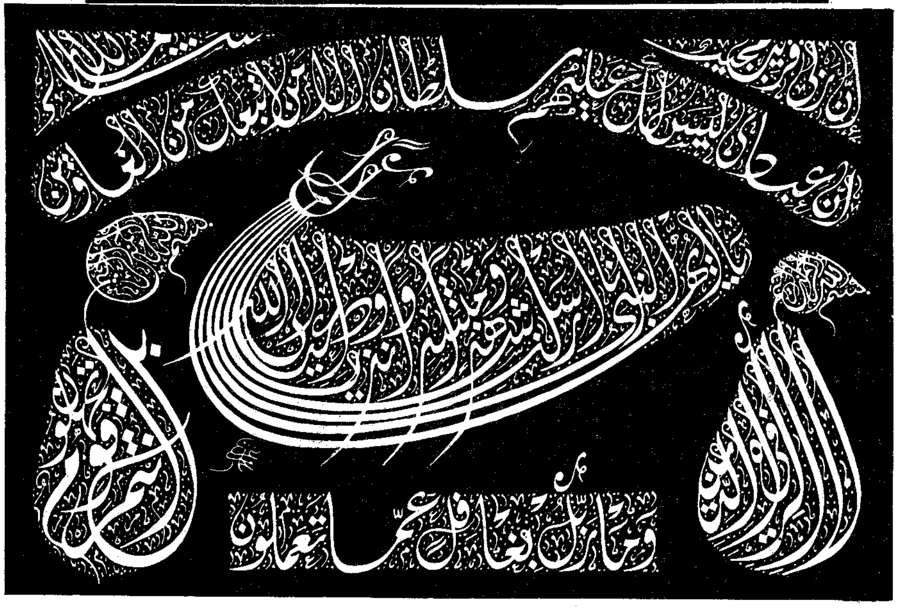
وهو نوّر ولقبه مولانا شيخ محمد وهو
نوّر ولقبه شيخ ابو الفتوح وهو
خواجه ابو الوفا الخوارزمي وهو نوّر ولقبه
الشيخ الكامل المكمل قطب
زمانه وغوث دورانه الطه وبس
وهو معروف الكرخي وهو سيّر بالسر
وهو جنيد البغدادي وهو ابو علي
الرودباري وهو ابو علي الكاتب وهو
نوّر ولقبه ابو عثمان المغربي وهو ابو القاسم
احمد وهو نوّر ولقبها الذي الكبير

مشقه الفقير اسمعيل الزهدي بيتر عفي عنه بامر
من خط عثمان المعروف بحافظ القرآن قدس سره في رمضان
سنه ١٢٠٥









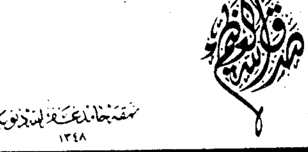
خط جلي ديواني لمحمد عزت كركوكي

بسم الله الرحمن الرحيم






رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين

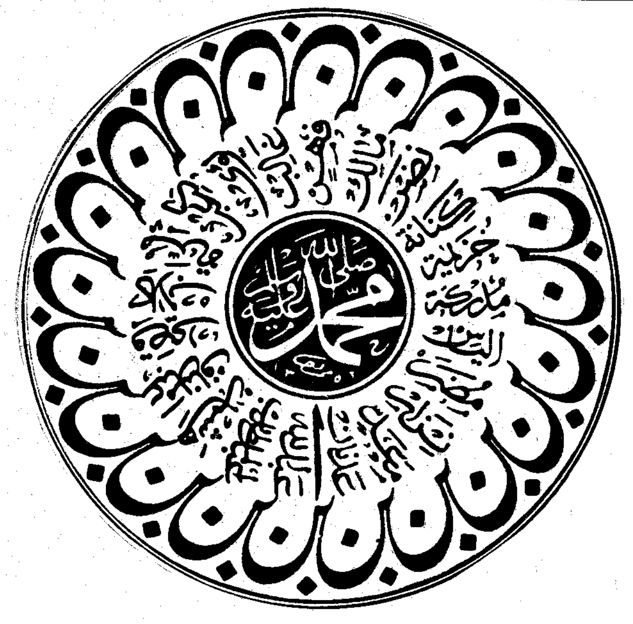

صدق الله العظيم


ولسوف يعطيك ربك فترضى

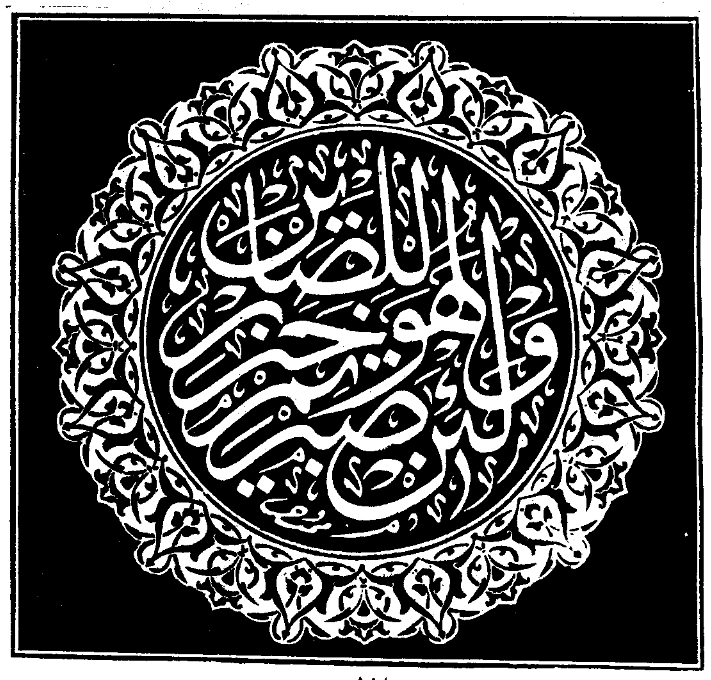

وكفى بربك هاديا ونصيرا



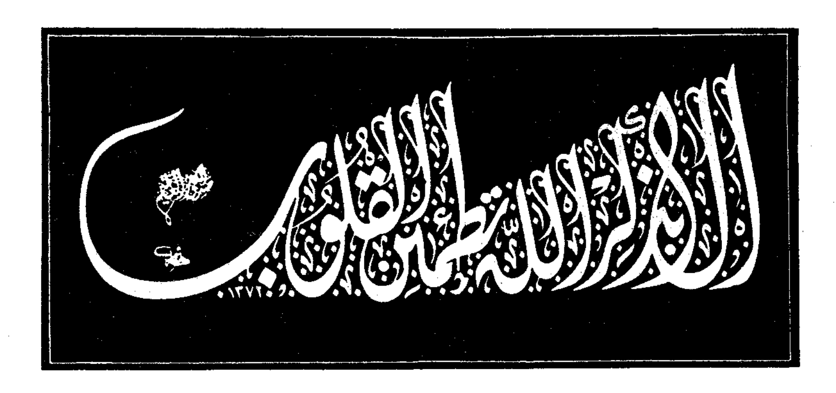






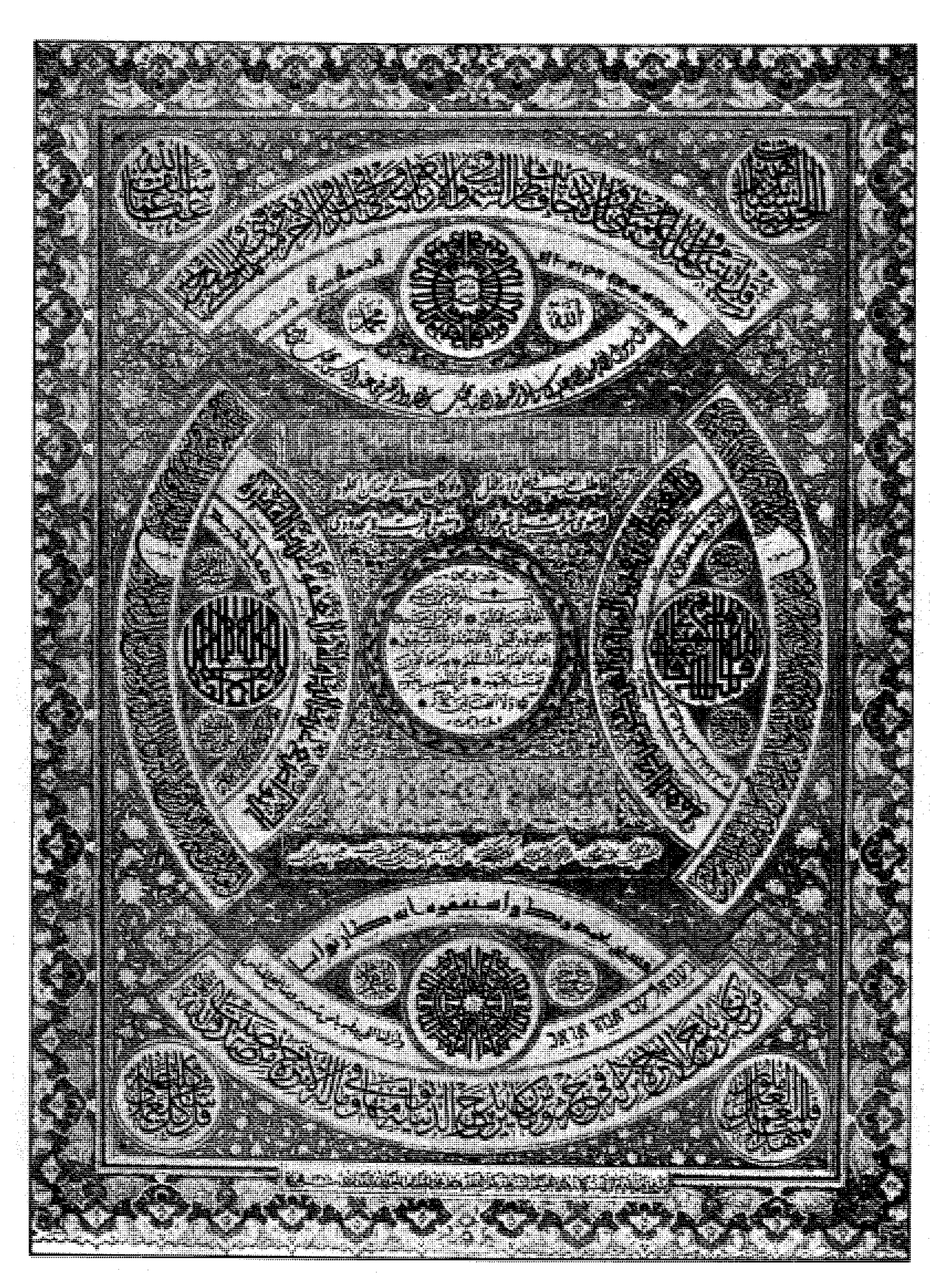


وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

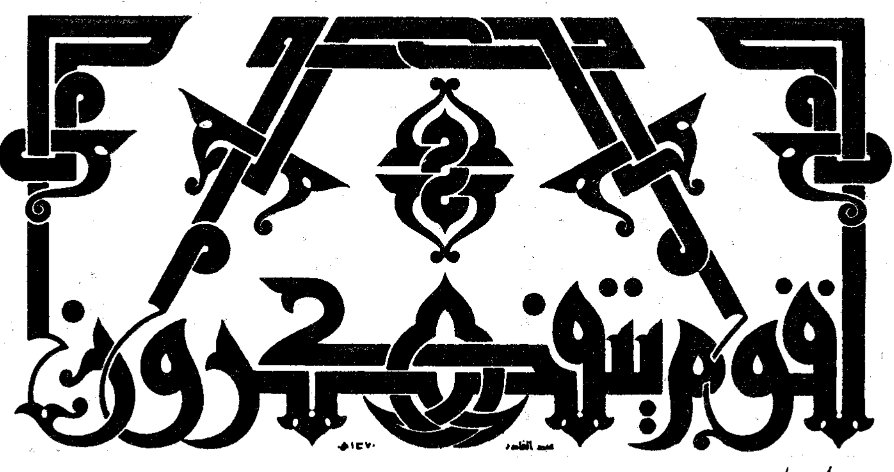




يا حضرت بير سيد أحمد الرفاعي



لوحة من خط هاشم محمد البغدادي



«لقوم يتفكرون» كتبها وصممها محمد عبد القادر عبد الله الخطاط بمصلحة المساحة والمدرس بمدرسة تحسين الخطوط الملكية [illegible] بالمملكة المصرية ١٣٧٠ هجرية

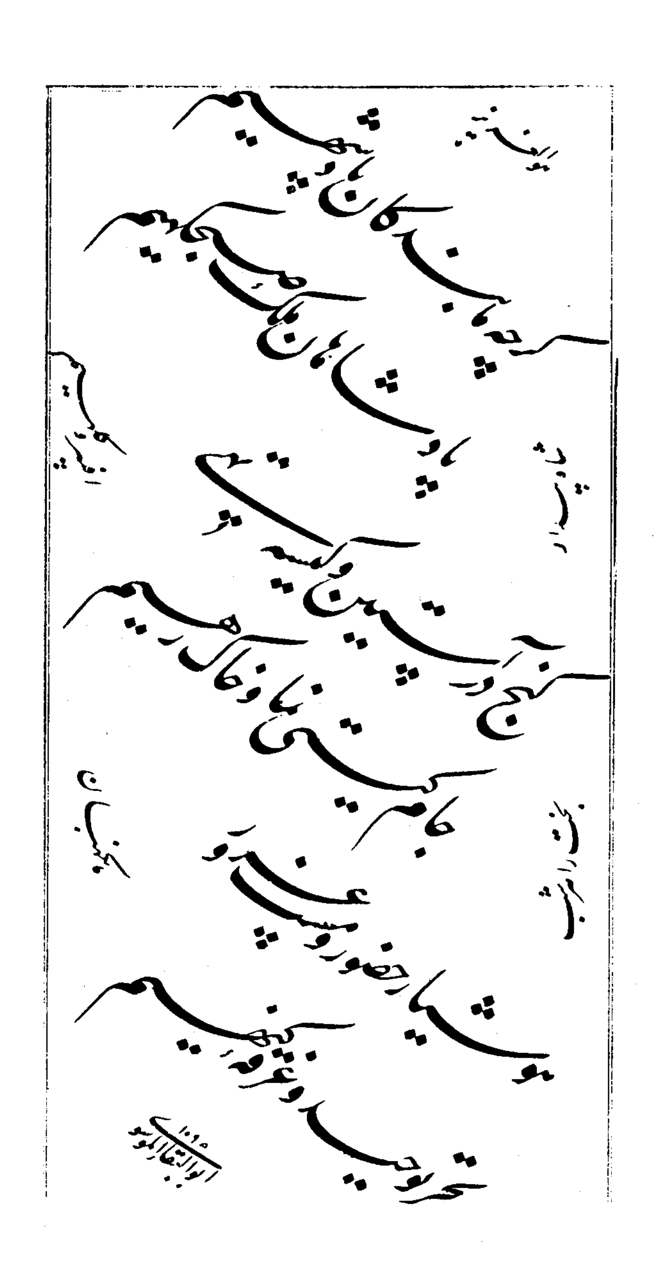
[illegible]

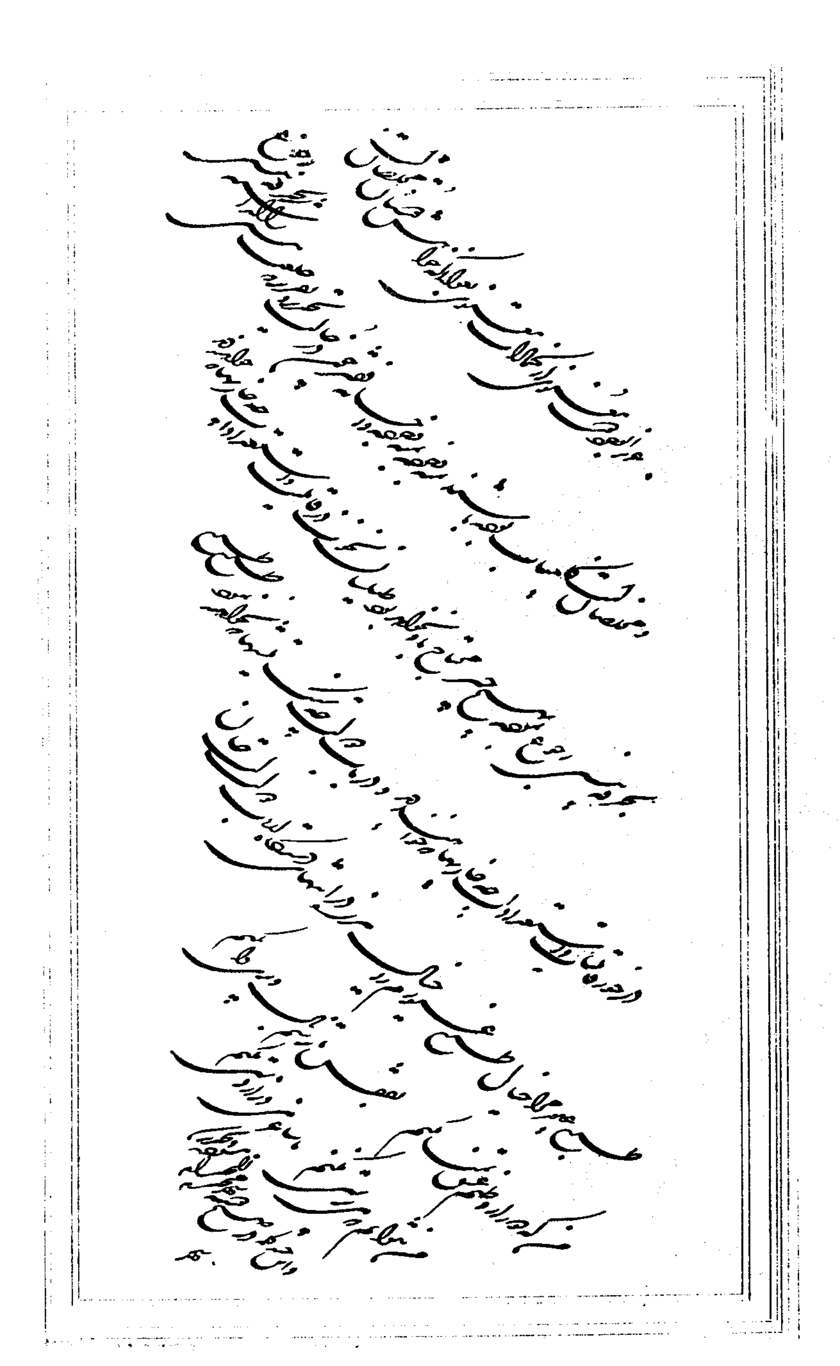
قال الإمام علي ... فهي الله محمد ده ... عباده الأمين الله الذي ...

روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله تعالى عنه أنه قال : الدنيا دار ممر إلى دار مقر . والناس فيها رجلان رجل باع نفسه فأوبقها ، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها . وقال إن القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة . صدق علي كرم الله وجهه

كتبها محمد عبد القادر عبد الله الخطاط بمصلحة المساحة والمدرس بمدرسة تحسين الخطوط الملكية تلميذ المرحوم مصطفى غزلان بك الخطاط الخاص بجلالة الملك


خيركم من تعلم القرآن وعلمه
محمد رسول الله

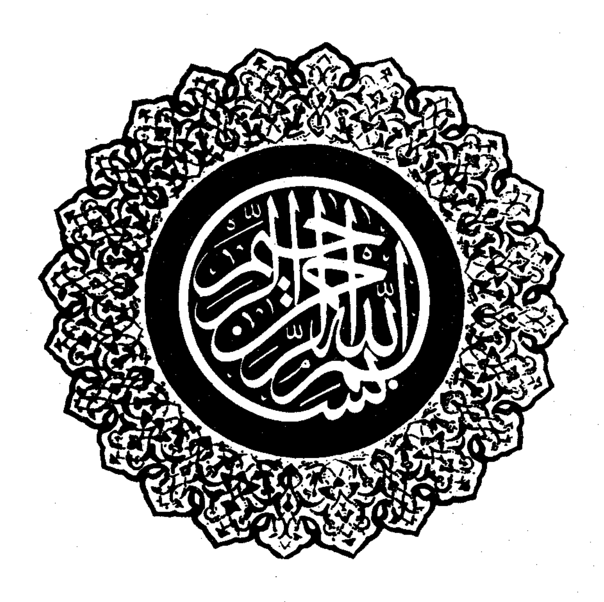


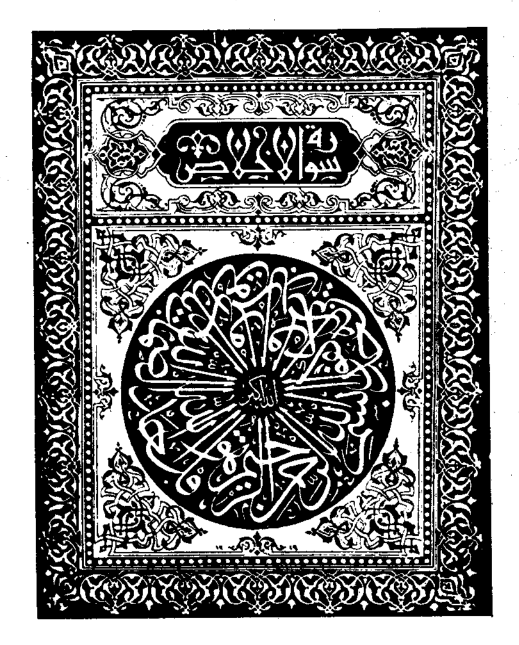


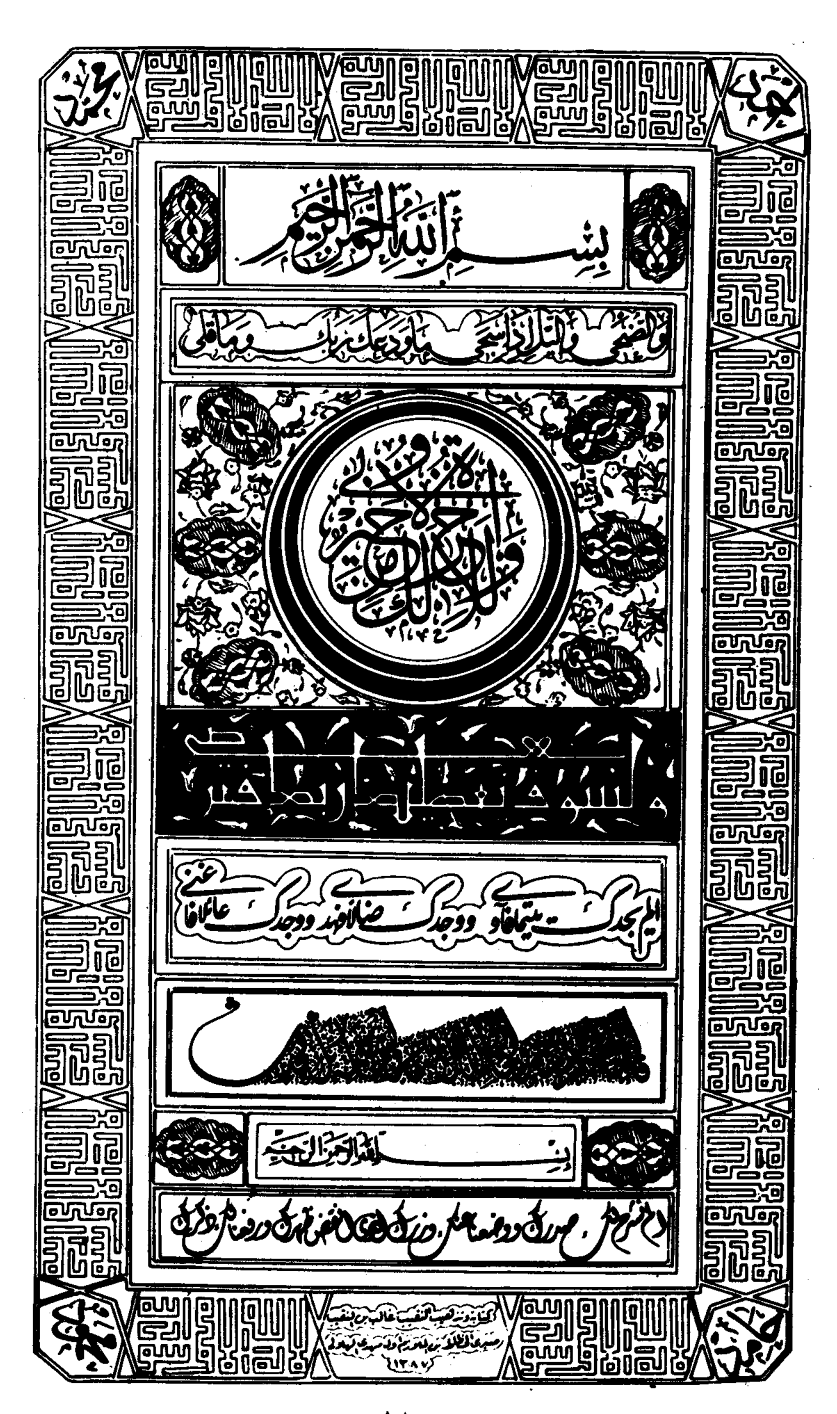
سَطَعَتْ سيادة المجـد الإلاهي
فاستمرَّ القلم في الحياة
لكن الكاتب طَوَاهُ الفناء



شعر حافظ بخط تعليق
متأخر لعبد الله ،
والارجح أنه عبد الله الفرادي
من ايران
(اواخر القرن التاسع عشر
وبداية القرن العشرين) .
جانبا


بسم الله الرحمن الرحيم


سورة الاخلاص


بسم الله الرحمن الرحيم
والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى
وللآخرة خير لك من الأولى
ولسوف يعطيك ربك فترضى
ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى
بسم الله الرحمن الرحيم
ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك



ملحق خاص ببعض روائع خطاط بلاد الشام

المرحوم

بدوي الديراني

أوصى أحد الحكماء ابنه فقال

يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك
وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤونة مانك اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها
وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى سيئة سدها اصحب من إذا سألته أعطاك
وإن سكت ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك اصحب من إذا قلت صدق قولك
وإن حاولت أمراً أمرك وإن تنازعتما آثرك

أوصى أحد الحكماء ابنه فقال

يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك
وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤونة مانك اصحب من إذا مددت
يدك بخير مدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى سيئة سدها
اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك
اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولت أمراً أمرك وإن تنازعتما آثرك

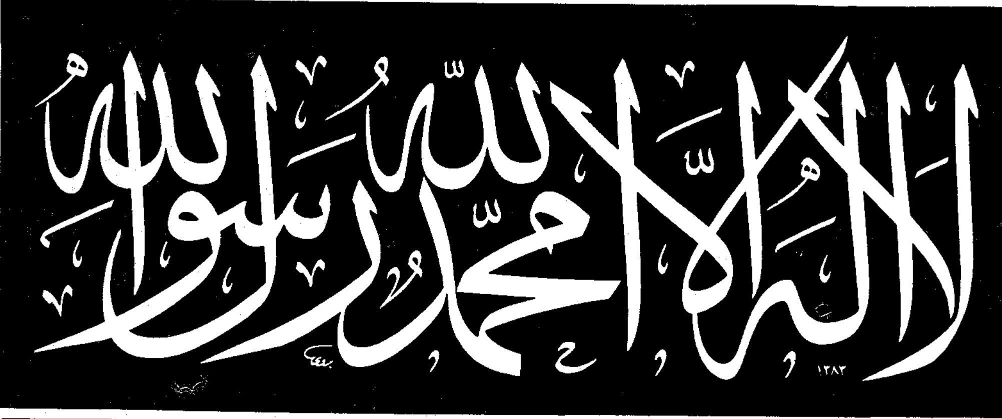


الله نور السموات والارض

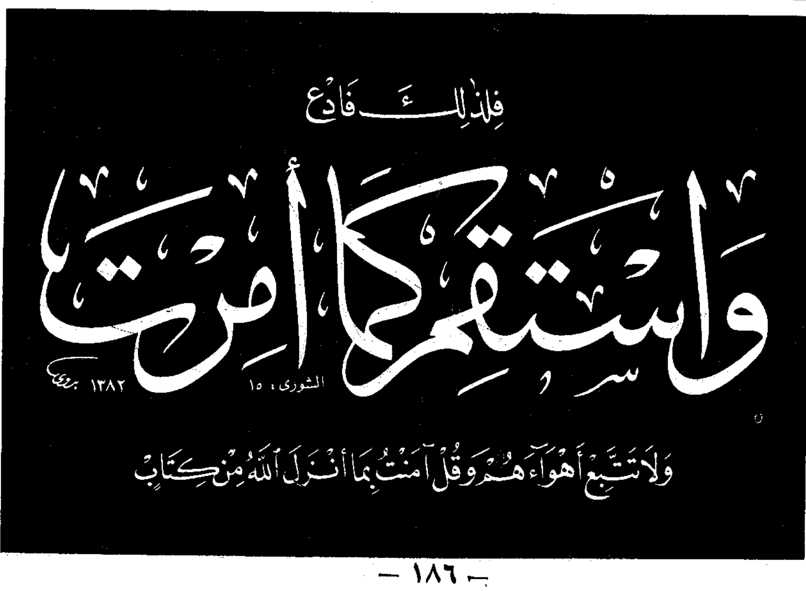
١٣٦٠


قال الله تعالى في كتابه العزيز
رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين
١٣٨١
بدوي


وأحسن كما أحسن الله إليك
صدق الله العظيم
بدوي


لا إله إلا الله محمد رسول الله
١٣٨٢


هذا من فضل ربي
بروى ١٣٦٢


فلذلك فادع
واستقم كما أمرت
١٣٨٢ بروى
الشورى، ١٥
ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب

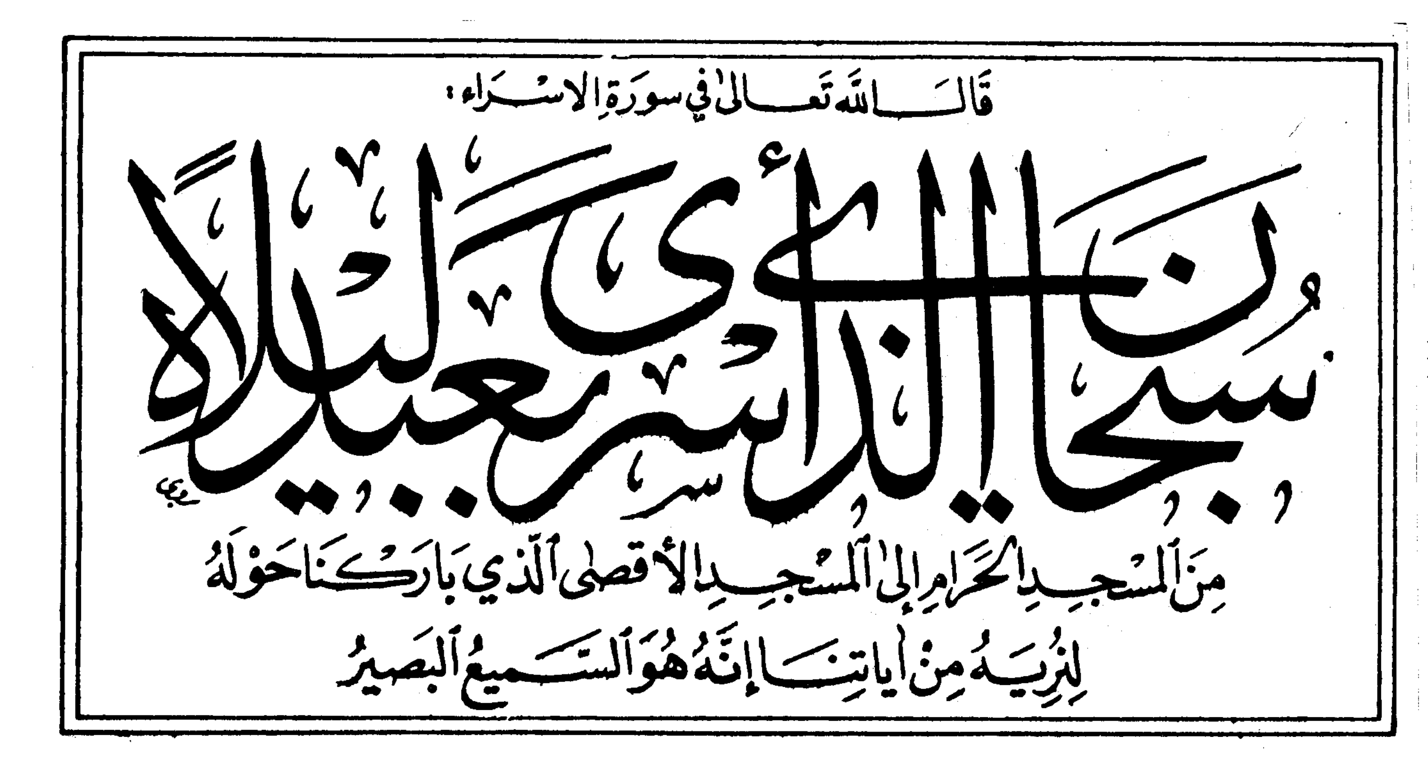
قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ ٱلْكَرِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ



وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ
عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبه محمد بدوي الديراني



قال الله تعالى في سورة الإسراء:
سبحان الذي أسرى بعبده ليلا
من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله
لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير

قال الله تعالى: انّ الله وملائكته يصلّون على النبي

يا أيّها الذين آمنوا

صلّوا عليه وسلّموا تسليماً



قال الله تعالى

محمد رسول الله

والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود



قال الله تعالى في سورة آل عمران : ١٨

إن الدين عند الله الإسلام

قال الله تعالى في كتابه الكريم

وما آتاكم الرسول فخذوه

١٣٨٣





رأس الحكمة مخافة الله

بدوي سنة ١٣٨٢

قَالَ اللهُ تعالى في سُورَةِ آلِ عمران: ٩٧

وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ

مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

قال الله تعالى في سورة الإسراء آية ٩-١٠

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا
وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

إذا جاء رمضان

فُتِّحَتْ أبوابُ الجنَّة، وغُلِّقَتْ أبوابُ النار، وصُفِّدَتِ الشياطين
(رواه البخاري ومسلم)


قال الله تعالى في سورة الأعلى ١٥-١٦
قد أفلح من تزكى
وذكر اسم ربه فصلى

قال الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين

واعبد ربك حتى يأتيك اليقين

سورة الحجر ٩٨-٩٩

قال الله تعالى في سورة البقرة ١٩٦

الحج أشهر معلومات

المراجع

١ ـ الإتقان في علوم القرآن — السيوطي

٢ ـ ياقوت المستعصمي — الدكتور صلاح الدين المنجد

٣ ـ بدائع الخط العربي — ناجي زين الدين المصرف

٤ ـ تاريخ الفن والحضارة — الدكتور عفيف بهنسي

٥ ـ الخط العربي أصوله ، نهضته ، نشأته — الدكتور عفيف بهنسي

٦ ـ الخط العربي — أميل بديع يعقوب

٧ ـ الخطاطة (الكتابة العربية) — الدكتور عبد العزيز الدالي

٨ ـ الذاكرة الأولى — عبد الحكيم ذنون

٩ ـ صبح الأعشى في كتابة الإنشاء — القلقشندي

١٠ ـ العلوم العملية في العصور الإسلامية — عمر رضا كحالة

١١ ـ الفنون الجميلة في العصور الإسلامية — عمر رضا كحالة

١٢ ـ قصة الحضارة في الوطن العربي الكبير — أنور الرفاعي

١٣ ـ قواعد الخط العربي — محمد هاشم البغدادي

١٤ ـ الكنز الموصوف بإحياء الخط الكوفي — محمد محمد علي موسى

١٥ ـ كيف تعلم الخط العربي — معروف زريق

١٦ ـ مجلة العربي ، الأعداد (٣١٢/٨٤) و (٣٢٢/١٩٨٥) و (٣٣٨/١٩٧٨)

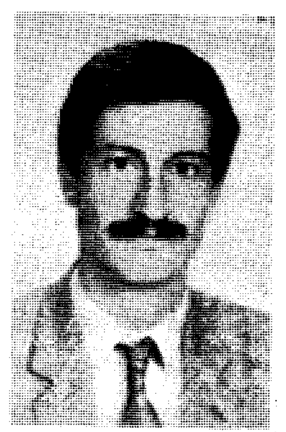
١٧ ـ محاضرة لمحمد المحفل في أسبوع العلم العربي

١٨ ـ محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرةالعربية قبل الإسلام — اغناطيوس غويدي

١٩ ـ نشأة الإنسان — دانييل بريفولت

٢٠ ـ أندلسيات — محمد عبد الله عنان

فهرس موضوعات الكتاب



المؤلف في سطور

بلال الرفاعي من مواليد دمشق عام ١٩٥٧ ، يحمل إجازة في الكيمياء التطبيقية من جامعة دمشق .

- انتسب لدورات الخط العربي في مركز الفنون التطبيقية بدمشق عام ١٩٧٣ ، وتتلمذ على يدي الأستاذ الخطاط نجاة العلبي ، وحصل منه على شهادة عام ١٩٧٦ ، تابع بعدها تمرينه على يد الأستاذ موفق الهواري .
- درّس الخط العربي في دار المعلمين العامة بدمشق .
- عمل كأستاذ للخط العربي في مركز أحمد وليد عزت للفنون التطبيقية بدمشق .
- قام بتنفيذ الكثير من أعمال الخط العربي .